تاريخ الصحافة فى الجزائر

رواد الصحافة الجزائرية

الزبير سيف الإسلام



الزبير سيف الإسلام

الطبعة الأولى

مطابع دار الشعب بالقاهرة

١٤٠١ هـ - ١٩٨١ م

الإهداء

الى تلك التى لم اجـــــد
الكلمات المعبرة عمــــا اريد
ان اقوله لهــــــا . . .
الى أمى عائشــــــة . .
رحمـــــة الله عليهــــا

((الزبير))

تقديم

تتشابه نشأة الصحافة فى معظم أقطار الوطن العربى ، بحكم تشابه الظروف السياسية التى مرت بها هذه الأقطار . فمعظمها كانت ((ايالات)) فى دولة سلاطين آل عثمان ، ثم تلاحق وقوعها تحت نير الاستعمار الأوربى الزاحف ، عندما شاخت الدولة العثمانية ولم تعد أكثر من ((رجل مريض)) ، وقبل أن يلفظ هذا الرجل المريض آخر أنفاسه .

وسواء أنشأت الصحافة العربية فى ظل التبعية العثمانية وحدها أم تحت وطأة الاستعمار ، فقد ولدت ((صحافة سلطة)) ، أى أن الحاكم هو الذى أصدر الصحف الأولى لكى تنطق باسمه فتذيع قراراته وتمجد انجازاته وتسبح بحمده .

وعلى هذا فلم تكن الصحف العربية الأولى صحفا شعبية نابعة من الجماهير لتجسد حاجتها الى وسيلة اعلام تحقق لها أغراضا معينة ، وكان ذلك أمرا منطقيا ، فلم يكن المجتمع فى أى قطر عربى قد بلغ من النضج أو الوعى ما يسمح بأن تنشأ الصحافة فيه نشأة ذاتية ، فيظهر من بين أفراده من يخطو اولى الخطوات فى هذا السبيل .

ومن هنا فان مرحلة الصحافة الرسمية فى البلاد العربية كانت ضرورة تاريخية . وقد أدت هذه الصحافة دورها فى خدمة التطور الاعلامى فى بلادها أحسن أداء . فقد كان لابد أن تستعين السلطات التى أنشأتها بعناصر وطنية للعمل فيها . ومن ثم كانت الصحف الرسمية الأولى مدرسة لتلك العناصر تمرست فيهـا على العمل الصحفى ، وكانت صفحاتها مجالا طيبا لتدريب ملكات أولئك المحررين الأوائل وصقلها ، ولابراز مواهبهم وتنميتهـا . وهكذا تكون الرعيل الأول من رواد الصحافة العربية .

ولقد كان من هؤلاء الرواد من سخا بعطـائه ، فجاوز حدود الاطـار الرسمى لصحيفته الى آفاق أرحب . وكان منهم كذلك من اسـتطاع ـ رغم القيود ـ أن يؤكد بكتاباته الاعتزاز بتراث الوطن ، ويزكى الشعور بأمانيـه وتطلعاته . وكان منهم فى الوقت نفسـه من اكتفى بالحـدود الرسمية ودار فى فلك السلطة مادحا وداعيا .

وصـحيفة ((المبشر)) الجزائرية هى احـدى أوائل الصحف الرسمية العربية ، أنشأتهـا السلطات الحاكمة فى بداية عهد الاستعمار الفرنسى للوطن الجزائرى . وهى تشبه فى ظروف نشأتهـا وتطورها وفى الدور الذى قامت به كثيرا من نظيراتها ، وبخاصة صحيفة ((الوقائع المصرية)) .

وفى هـذا الجزء من سـلسلة ((تاريخ الصحـافة فى الجزائر)) التى يصدرها الأستاذ الزبير سيف الاسلام يقـدم المؤلف دراسة لعدد من رواد الصحافة الجزائرية الذين عملوا فى ((المبشر)) وفى بعض الصحف الأخرى .

وقد أبرز الكاتب دور كل رائد من خلال عمله وكتاباته ،

كما ألقى الضوء على ظروف نشأته وتكوينه . وكان الكاتب دقيقا وموضوعيا ، عندما ربط الفترة التى أرخ لها من خلال تأريخه لأولئك الرواد ، بالنهضة التى شهدتها أجزاء أخرى من العالم العربى ، وبخاصة سوريا ومصر ، وكانت أشبه بحركة ((احياء)) كبيرة تركت أبعد الآثار فى مختلف أوجه الحياة فى الوطن العربى الكبير . وقد أشار فى هذا الصدد الى دعوات الافغانى ومحمد عبده والكواكبى وغيرهم ، وكذلك الى بعض الصحف العربية التى علا صوتها بالدعوات الاصلاحية والتحررية مثل ((المؤيد)) المصرية التى أصدرها الشيخ على يوسف .

والحق أن تاريخ الصحافة فى كل قطر عربى حافل بالحقائق التى تحتاج الى كثير من الجهود لكشفها وربطها بالتطور العربى العام ، فالصحافة هى دائما مرآة عصرها . وذلك حتى تتصل حلقات الماضى المجيد بالحاضر المتطلع ، سعيا نحو مستقبل مشرق زاهر .

د. أحمد حسين الصاوى

الجامعة الأمريكية بالقاهرة

كيف عرف الجزائريون فن الصحافة ؟

قبل أن نتحدث عن صحفيينا الأوائل ، يجب علينا طرح السؤال التالى :

كيف عرف الجزائريون فن الصحافة ؟

والجواب على هذا السؤال يمكن أن نجده وأن نعرفه من الدراسات السابقة لنشأة الصحافة الفرنسية فى الجزائر .

والقارىء الكريم لا شك أنه يتذكر ما قلناه فى الحلقات الأولى (١) عن دخول هذا الفن الى البلاد العربية الاسلامية فعرفته مصر أولا (١٧٩٨ — ١٨٠١) .

ثم عرفته تركيا ثانيا (١٨٢٥) وعرفته الجزائر ثالثا (١٨٣٠) وكان ذلك على أيدى الفرنسيين فى جميع الحالات .
أما فيما يخص الجزائر فقد عرف شعبها هذا الفن مع دخول الفرنسيين الذين بدأوا الغزو الفكرى الى جانب الغزو الاستعمارى ، ولم يعر شعبنا هذا الفن أى اهتمام فى بادىء الأمر لأسباب عدة وأهمها على الخصوص :

---

(١) راجع الدراسات التى نشرت بمجلة الجيش الجزائرية سنوات ١٩٦٧ الى ١٩٧٠ عن تاريخ الصحافة بالجزائر .

أولا : ان هذا الفن كان يكتب بلغـــة لا يفهمهـــا من أفراده الا أشخاص يعدون على الأصابع .

ثانيا : ان هذه الصحـافة كانت تهتم بشئون الغزاة من ادارة وجيش ومعمرين .

ثالثا : انه سلاح يخدم مصالح الغازى الغشوم .

وأخيرا يضاف الى هذه الأسباب انه لم يسبق له معرفة هذا الفن من قبل .

ومع مرور الأيام وتغلغل الاستعمار فى داخل البلاد وتحصنه فى العاصمة ، بدأت نخبة الأعيان المثقفين من أبناء الجزائر ، الاحتكاك بهذا الفن ، خاصـــة وأنهم كانوا على ثقـــافة عالية عند وصول الفرنسيين واحتلالهم للعاصـــمة . وكان من بين هذه النخبـــة السادة : حمدان بن عثمان خوجة الذى كان يشغل منصب رئيس وزارة « الداى » ، والذى كانت له ثقافة عالية عربية وفرنسية ، واطلاع واسع فى أمور الدولة والسياســة ، وهو صاحب « كتاب المرآة » وكذلك السيد بوذيه : الذى كان يتقن اللغتين العربية والفرنســية ، والذى كان تاجرا وقنصلا « للداى » فى مدينـــة مرســيليا وله دراية كذلك بأمور السياسة والديبلوماســية ، وأمثالهما كثيرون وبواسطة هؤلاء بدا المجتمع الجزائرى يعرف فن الصحافة . يضاف الى ذلك ظهور الصحف بكثرة ، فى الـ ١٥ سنة الأولى من الاحتلال ، فى عديد من المدن كما ســبق لنا أن شرحنا ذلك مفصلا .

وما كادت تبدأ السنة السابعة عشرة حتى وجـد الفرنسيون أنفسهم مضطرين لايجاد وســيلة تخاطب وهمزة وصل بينهم وبين أهل البلد الذين لا يعرفون لغة الدخيل ، فكانت هذه الوسيلة هى

تأسيس جريدة باللغة العربية ، يتوجهون اليهم على أعمدتها فى كل اعلاناتهم وقوانينهم يخاطبونهم بواسطتها . وكانت تلك الجريدة هى : « المبشر » و (ورود الأخبار من جميع الأقطار) التى تأسست عام ١٨٤٧ كما سبق شرح ذلك (١) .

ومن هذا التاريخ ، وبواسطة هذه الجريدة عرف الجزائريون الصحافة العربية ، وفن تحرير الصحف باللغة العربية ، بعد ما عرفوه باللغة الفرنسية . ولقد كانت هذه البادرة التى قام بها الجنرال دوماس تعتبر ثورة فى هذا الفن بالنسبة للجزائر ، بقطع النظر عن استعمالها للأغراض الاستعمارية التى شرحناها عندما تحدثنا عن هذه الجريدة . ولكننا نقصد الجانب الفنى والصحفى ومعرفة الجزائريين له .

الكتابة فى الصحف :

واذا كان الجزائريون عرفوا فن الصحافة منذ ١٨٣٠ باللسان الفرنسى ، ومنذ ١٨٤٧ باللسان العربى ، فاننا لم نعرف ما اذا كتب أحدهم فى هذه الصحف أم لا . ولقد حاولنا ما استطعنا الى ذلك سبيلا العثور على اسم لأحد الجزائريين فى تلك الصحف — عربية كانت أم فرنسية — فلم نعثر على واحد منهم . وليس معنى هذا انهم لم يكتبوا فيها ، ولعل عدم ذكر أسماء المحررين فى ذلك العهد هو سبب اختفاء أسمائهم من أعمدة الصحف ، وحتى جريدة المبشر التى كانت موجهة للجزائريين وناطقة بلغتهم ، لم نجد فيها أسماء لجزائريين ولا لغير جزائريين ، مع العلم بأنها كانت تعتمد على الترجمة . وهنا يمكن أن نتأكد من أن المترجمين أو معظمهم كانوا من الجزائريين . ومن هنا يمكن القول ، ولو لم تكن

---

(١) راجع كتابنا « تاريخ الصحافة فى الجزائر » ، الجزء الاول ، طبع الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائرية سنة ١٩٦٨ .

لنا الحجج الدامغة ، بأن الجزائريين قد عرفوا فن الصحف تحريرا وترجمة وقراءة مع ظهور جريدة المبشر ، وحجتنا الوحيدة فى ذلك هو وجود الجريدة ذاتها .

والواقع أن الجريدة كانت فى أيامها الأولى تكتبها أو تترجمها أقلام أجنبية عن اللغة الفرنسية ، وهذا ما تؤكده لنا تلك (الركاكة اللفظية) التى كانت تكتب بها والتى لم تكن أبدا كتابة جزائريين ، ولقد تحسن أسلوبها عندما تولى كتابتها جزائريون .

الفصل الأول

ابن الصيام : أول (صحفي جزائري)

أو أول كاتب يظهر اسمه على أعمدة الصحافة

في الجزائر

في افينيون

الأنهار ومدينة ليون

باريس

في فيرصاي

خرجنا من حسناء باريس

من هو سليمان بن الصيام

ابن الصـــيام
أول (صحفى جزائرى)

أو أول كاتب يظهـــر اسمه على أعمدة الصحافة فى الجزائر .

●● منـذ أن ظهرت الصحـافة ، وفن الصحـافة ، فى ديار الجزائريين عام ١٨٣٠ الى عـام ١٨٥٢ لم يظهـر اسم صــحفى جزائرى ، أو كاتب جزائرى ، أو مترجم جزائرى ، على صفحات الجرائد العديدة التى انتشرت فى كل مدينة من وهران الى عنابة ـ للأسباب السابقة الذكر ، رغم احتـكاك المجتمع الجزائرى بهذا الفن منذ أكثر من ٢٢ سنة .

وتأتى سنة ١٨٥٢ وتقام فيهـــا احتفالات العرش فى فرنسا ، بتنصيب نابوليون الثالث امبراطـــورا على راس الامبراطـــورية الفرنسية ، ويستدعى الامبراطور نخبـــة من الأعيـــان العرب ، للمشاركة فى الأفراح وعلى أثرها يظهـر أول « صحفى جزائرى » على الاطلاق هو **السيد سليمان بن الصيام المليانى** ، الذى شـــهد ضمن الوفد الجزائرى ، الاحتفــالات والاستعراضات فى باريس وغيرها . وعندما وصل الى الجزائر راجعا من باريس قدم عرضا مفصلا لجمهور القراء على صفحات جريدة المبشر شرح فيـــه كل ما شهد ، وما راته عينه فى هذا البلد الجميل ، وقد جمع أسلوبه فى العرض بين أسـلوب الرحالة القـديم واسـلوب الروبورتاج المعـــاصر .

ولقد كنت تراه فى عرضه ذلك يستعرض لك الرحلة مرحلة مرحلة منطلقا من مقر سكناه الى العاصمة ، ثم يسرح فى آفاق البحر ، الذى ركب أمواجه وينتقل الى « كروسة الدخان » (١) التى أقلته الى مدينة مونبيليي Montpellier فوصفها وصفا دقيقا ، من آلاتها الى الفحم الحجرى ، الى قضبان الحديد التى تسير فوقها ، الى المغارات التى حفرت تحت الجبال تسهيلا لشق طريقها ، الى عدد « الكروسات » أى العربات التى تجرها فى سيرها . وعندما يحطون الرحال لا ينسى أن يتجول فى المدينة ليصف معالمها العمرانية والأثرية ومتحفها (قصر الآثار) ثم يحملك معه على ظهر مراكب الأنهار الكثيرة فى فرنسا ، ليروى لنا باعجاب أرصفتها وسير المراكب فيها والمناظر الطبيعية التى يشاهدها ، والأشجار المظللة للطرقات والأراضى المحروثة المستغلة الى أبعد حد ، الى أن يصل بنا الى مدينة « ليون » التى تعتبر « دار الملك الثانى بعد باريس » فينتقل بنا الى دار محكمتها ، ثم الى « قصر العجائب » فيتحدث عن انسان مصرى ميت ، موضوع فى تابوت من الزجاج ، مات منذ ثلاثين قرنا ، قدم به الفرنسيون من مصر .

ولا يفوت السيد الصنيام فى طريقة الى العاصمة الفرنسية أن يذكر محاسن سكان تلك الجهة الذين رحبوا بهم « بعضهم بلسان الحال وآخرون بلسان المقال » . بعد هذا يصعد بنا الى « كروسة الدخان » مرة ثانية ، ويلفت نظره الخيوط الممدودة على طول الطريق من ليون الى باريس ، وهى محملة على أعمدة خشبية على ارتفاع ذراعين من الأرض ، وهى الخيوط السلكية الهاتفية التيليغرافية ، التى يتحدث صاحبها جالسا فى باريس مع صديقه فى ليون ، ويمتلكه العجب فيقول : ان الأمر لله من قبل ومن بعد .

---

(١) أطلق على القاطرة اسم : كروسة الدخان .

اننى لا أريد أن أطيل الكلام فى تقديم ما كتب هذا الرجل الذى شاءت الأقدار أن يكون أول صحفى جزائرى ، فى نظرى ، على الاطلاق . ولذا فها أنا أعطيه الكلمة لكى يقول ما يشاء لبنى وطنه عن رحلته ، ثم يصف لهم احتفالات العرض فى باريس .

بسم الله الرحمن الرحيم وبه نستعين

نحمد الله حمدا معترفا بحقه ونشكره على فضله ورفقه الذى جعل لنا الأرض ذلولا نمشى فى مناكبها ونأكل من رزقه وسخر لنا الفلك لتجرى فى البحر بأمره ورفقه وبعد ؟

ركبت من مليانة دار السكنى الى الجزائر الغراء دخلتها حماها الله يوم ٢٣ أبريل سنة اثنين وخمسين وثمانية عشر ماية . .

ووجدت بها جماعة من رؤسـاء الايالتين (١) ، أعنى وهران وقسنطينة بالسفر مثلنا لينخرط الجميع فى سلك أولئك الأفاضل يوم اجتماع المحافل وكان سفرنا من الجزائر الى مدينة « سيط » يوم ٢٥ أبريل . . ركبنا البحر قاصدين مدينة سيط (٢) فلما رأيت ذلك السيل السائل تذكرت قول القائل :

انظر الى مركب يسبيك منظره
تسابق الريح فى سيره بتسواء
كانه طائر قد مد اجنحته
الى من الجو متقضا على الماء .

ودخلنا مدينة سيط عشية السابع والعشرين من أبريل وبتنا بها ليلتنا ولم يمكننا أن نرى ما احتوت عليـه من المحاسن لسفرنا منها غداة دخولنا قاصدين مدينة مونبيليى . . » .

---

(١) المحـافظتين .

(٢) لا ندرى ما هى هذه المدينة الفرنسية لعله كان يقصد ، بسيط ، مدينة مرسـيليا ؟

هنا نراه يعطينا وصفا للبـــاخرة التى حملتهم واجتازت بهم عباب البحر ، ونراه يأسف لعدم التمكن من مشـــاهدة ما احتوت عليه مدينة « سيط » . بعد هذا يصل بنا الى وصف القطار الذى يحملهم فى المرحلة الثانية الى مدينـــة مونبيليى Montpellier وسكة الحديد التى تسير فوقها فيقول :

« سافرنا فى كروســـة الدخان ـ القطـــار ـ فوق طريق من حديد ، ووصفها على وجه الاختصار هو انهم جعـلوا شرائط من حديد من أول الطريق الى آخـرها فى غاية التمكن بمســـامر من حديد مع استوائهـــا تسير الكروسة فوق تلك الشرائط وذلك اختراع عظيم بيانه انهم جعلوا هذه الشرائط فى الأرض يمينـــا وشمالا مربعة مرتفعة مقوسة فى أسفلها الى تحت الأرض وفى الربع الأعلى ساقية تجرى فيها رودة (عجلة) الكروسة ولا تخرج عنهـا لأجل حسن المطابقة بين أسفل الساقية ودور الرودة ـ العجلة ـ وذلك من أغرب ما يكون مع الطريق ووزنهـــا بموازين الهندسة بحيث لا يعلو موضع على الآخـر بشىء ما ومهما تعرض لهم جبل شاهق فى الطريق يمنعهم من المروز دخلوا تحته بالثقب » .

ويسترسل فى شرح كيفية الثقب وطول المغارة وسرعة ســـير القاطرة ومادة الفحم الحجرى وسرعتها بالنســبة لسير الدواب شرحـــا مطـولا .

وبعد أن ينتهى من شرح هذا الاكتشاف العجيب ـ يصل بنـــا الى مدينة مونبيليى فيقدم عرضا مفصلا عن استقبالهم من طرف الجنرال قائد المدينة وحسن استقباله لهم ثم يذهب الى وصف حدائقها فيقول :

« أمر قبطانه أن يذهب معنا الى بستان عجيب فلما دخلنا الى ذلك المنتزه وجدناه من أحسن ما يكون مشتملا على أثمار وأزهار ومنازه ومقاعد وميـــاه متدفقة يســـمى (بيروا ورأينا به مياء

محمولا فوق اقواس فى غاية العلو يتدفق فى ذلك البستان أخبرنا القائم به أن ذلك الماء مجلوب من جبل بعيد عايناه ، وبينه وبين البلدة مسيرة ست وثلاثين ساعة ثم بعد التفرج خرجنا الى المحل الذى أنزلونا فيه . وسافرنا من البلدة المذكورة فى ٢٩ أبريل الى بلدة تسمى افينيون Avignon

فى افينيون Avignon :

وعندما وصل الى هذه المدينة وصفها كما يلى :

« دخلناها فى يومنا ورأينا بها ما يستغرب من البناء المحكم العجيب فيها دار معدة لاجتماع (الباباصات) (١) وأهل العلم فى الدين المسيحى فيالها من دار قد فاقت ما فيها من الترجيص بالصخور والصور حتى تحير فيها العقول » ..

الأنهار ـ ومدينة ليون :

وفى رحلته من مدينة افينيون الى مدينة « فلانص » والتى كانت بواسطة المراكب النهرية ـ يصف تلك المراكب والأنهار باعجاب بليغ فيقول :

« سافرنا .. قاصدين بلدة فلانص فى مركب الدخان فى النهر الذى هو كالبحر عرضه ينيف على ٣٠٠ ذراع مرصف من جهتيه ، ورأينا فوقه قناطر تمر من تحتها المراكب فى غاية العلو والاتقان مصنوعة من سلك الحديد والبناء العجيب .. وتعداد السفن الدخانية وذات القلاع (لا تحصى) ونحن نرى تلك العجائب الى أن وصلنا الى مدينة ليون . فى اليوم الثانى من مايو دخلناها فوجدناها من أعظم المدن وأجودها وفى الحقيقة هى ثانى كرسى دولة فرنسا مشتملة على منارة ومقاعد وأشجار وأزهار ورنات

---

(١) الرهبان ..

أطيار تغنيك عن سماع الأوتار ، في وسطها واد عليـــه قناطر من حديد لم تر العيون مثلها ولا سمعت الأذن بشبهها ، قابلونا أحسن قبول وفرحوا بنا كلهم ، منهم من فرح بلســـان المقال وآخرون بلسان الحال . ثم مشوا بنـــا الى كنيســـة وجدناها من أعظم الكنـــائس وأجودها مع الفخامة والتشييد في البنـــاء الغريب والرفاهيـــة » ..

ثم يحكى عما شهده في ليون من دار الآثار والهياكل الآدميـــة المنحوتة التى لا ينقصها الا الكلام ، والصور على الجدران « والتى اذا حققت النظر فيها تراها تتبعك بنظرها ، فيا لها من صنعـــة غريبة ، ولقد شهدنا انسانا ميتا موضوعا في صندوق من زجـــاج وقد يبس جلده على عظمة مع بقاء شعر رأسه وبقاء أسـنانه على حالها » . فسأل عنه فقالوا له « انهم أتوا به من بلاده مصر حيث وجدوه في مضجع الأولين ومنذ موته الى اليوم ثلاثة آلاف سنة » .

وبعد أن يصف السيد سليمان الصيام « دار محكمة ليون التي تمثل وحدها مساحة قرية بما فيها الحدائق والبساتين » . ينطلق في وصف المركب الدخاني الذى حملهم الي مدينة شالون ، عبر الأنهار ، ومن مدينة شالون الى باريس في قاطرة ، ولم تلهه مناظر الطبيعة الفرنسية عن أن يلاحظ الخطوط الهاتفية البرقية الممتدة على طول الطريق من باريس الى مدينة ليون فسأل عن وظيفتها ويأخذه العجب عندما يعلم ما تقوم به من أعمال المواصلات فيقول :

« هذا من أغرب ما رأيت والأمر لله من قبل ومن بعد » .
وبعد ذلك يستخلص كلامه لما شهده فيقول :

« وحاصل الأمر وغايته أننا منذ دخلنا هذه البلاد بأسرها لم نر بها موضعا خاليا من الغراسة والحراثة وكثرة الأشجار المثمرة والظل المديد والحسن اللذيذ ليس فوقه من مزيد مع كثرة مدائنها

وقراها وعمارتهم ونظافتهم حتى اننا لا تمر علينا الساعة الواحدة الا وشهدنا فيها من المدن والقرى ما يكل اللسان والقلم عن تعديده ، وبالجملة هي قرى متسلسلة متصلة بعضها ببعض ، خاصة مع جد السير حتى أن الانسان لا يظن الا انه في بلدة وحده ..

ولما رأيت تلك الأشجار والأنهار وذلك الظل والازهار تذكرت قول البحترى حين وصف دمشق الشام بقوله :

اما دمشق فقد ابدت محاسنها
وقد وفى لك مطربها بما وعدا
يمشى السحاب على جبالها فرقا
ويصبح النبت فى صحرائها بددا
فلست تبصر الا واكف أخضلا
ويانعا خضرا وطائرا غردا
كانها القيظ ولى بعد وفدته
او الربيع دنا من بعد ما بعدا

يرجع السيد صيام الى الحديث عن وصف أهل البلد وطبائع سكانه فيمدحهم وكأن لسان حاله يقول : « ياليت ياليته » لو أن ما فى هذا البلد كان موجودا فى بلادى الجزائر فيقول :

اما أمر أهل فرنسا فى الاعتناء بالغراسة والحراثة والنظافة والتشييد فى البناء وتكثير التجارة والصنائع فهو أول دليل على صلاح رأيهم وامتثالهم حتى اشتهر العدل فى برارهم وبحورهم وقد أخبرنى بعض الاصدقاء وقال لو اتفق لبعض النسوة السفر فى البر أو النهر راكبة أو راجلة تقطع المسافة من شرق البلاد الى غربها من غير معارض ولا لص وإن امتلأت حقائبها ذهبا وياقوتا ولا يخطر

ببال شخص تجريد الناس فى الطريق بل يعم الأمن والامان والعافية والخصب جميع النواحى .

باريـــس :

وبوصوله الى باريس فى ٤ مايو يجد نفسه عاجزا عن التعبير عن تلك المشـــاهد والمناظر الخـلابة فيقول « وجـدتها أحسن مما وصفها الوصــافون ولا يمكن لشخص أن يســتوعب جميـع محاسنها ولو آقام السنين . .

فهى من أعمر مداين الدنيا والتحقيق ان سكانها مليون ومائتا الف نفر وهى من أعظم مداين الافرنج الآن . . واما أهــل باريس فهم يختصون من بين الناس بذكاء العقل ورقة الفهم وغوص الذهن فى الأمور عامة .

كانت محــادثة الركبــان تخبرنا
عن فضلهم وعلاهم أحسن الخبر
حتى التقينا فلا والله ما سمعت
اذنى نصف ما قد عاينت بالبصر

وبعد الانتهاء من وصف أهل فرنسا قال : « نذكر الآن بعض ما اتصــف به سيدنا المعظم ملك فرنسا المنصــورة على ســبيل الاختصار نقول ، هو سلطان كبير فزع ، سلطان بالعدل والشجاعة، شهير ذو قدر جليل خطير شــهرته أغنى عن الوصــف ، وفخره لا يحتاج الى ايضاح ولا كشف ، فارس مضمار وبطل وفاء كرام ، ذو فتكات معروفة ، وعزمات موصوفة ، وكل الملوك بذلك يشهدون

وهو المعظم الامجـد سيدنا لوى نابوليون اطـال الله مدته وادام سـعادته (١) .

ورث الشجاعة من أبيه وعمه
فكانهم مـا غـاب منهـم ملك
جمع السماحة والرجاحة والندا
والبأس والرأى الأصيل مبارك
واذا المعالى أصبحت مملوكة
أعناقها بالحق فهو المالك

فجزى الله أهل فرنساخيرا حيث اعطوا القوس باريها واسكنوا الدار بانيها وأركبوا الجمل مجريها وفوضوا أمر الدولة الى العالم بحلها وعقدها واما الوزراء وكبار الدولة فهم قـوم أخيار دورهم كبـار ..

هم قوم أن قالوا أصابوا أو دعوا
اجابوا وأن اعطوا أصابوا وجزلوا
فلا يستطيع الفاعلون فعالهم
وأن أحسنوا فيما أتوه واجملوا

بعد وصف الرجال ينتقل الى وصف الأنهار فيقول :

« واما انهارها ــ مدينة باريس ــ فنقول باختصـار يشـقها نهران احدهما وهو الأعظم والأشهر يقال له نهر السين المذكور ماؤه من أحسن المياه مناسبة لصحة الابدان باتفاق الحكماء وفى نهـر

---

(١) ان ابن الصيام كان من النخبة الجزائرية المستسلمة يومئذ اى المتعاونة مع الفرنسيين .

السين المذكور بداخل باريس ثلاثة جزائر وفيه تسافر السفن العظيمة للسوق وبه الأرصفة الجيدة العظيمة على حفتيه وشطوط هذا النهر فى داخل المدينة مرصفة بحيطان عالية عظيمة فوق الماء بجانبها على النهر وهى محكمة البناء واما قناطر النهر بباريس فهى ست عشرة قنطرة ، فمنها قنطرة البنات لها أربع مائة قدم من الطول وعرضها سبعة وثلاثون قدما يقال قد بنيت فى خمس سنين وصرف فيها ثلاثون مليون فرنك وتسمى أيضا هذه القنطرة قنطرة (استرلتز) باسم محل غلب فيه نابوليون ملك النمسا وملك الموسكو فيقال لهذه الواقعة استرلتز موافقة لتتويج نابوليون فسميت القنطرة بهذا الموضوع الذى وقع فيه الظفر لنابوليون بملكين من الملوك المعتبرة تذكرةوابقاء لذكراه الجميل : واما بساتين باريس وأشجارها ومحل الوحوش فان الدولة أنعمت علينا بأن وجهونا الى موضع يقال له « جاردان دى بلانط » وجدنا فيه من الوحوش كالفيل والأسد والنمر والكركدن والبرص والسبع ونحوها ورأينا غير هذه الوحوش مما لا أسميها ويقرب هذا المحل بستان متسع جدا مسقفا بالبلور وجميع الأشجار التى تنتج فى البلاد الباردة وجدناها مغروسة فيه كالنخيل ونحوه ولما دخلناه وجدناه حارا مثل الحمام فكشف الغيب أنهم يوقدون النار تحته تحفظا لتلك الأشجار » .

ثم ينتقل من حديقة الحيوانات الى ملعب المدينة فيحاول أن يصف ما شهده فيه قائلا : اما مواضيع اللعب والمرح فان أهل الدولة وجهونا الى موضع اللعب وهى دار فى غاية الاتساع والاتقان فلما اجتمع الناس وشرع المزاحون فى أمرهم وكنا نرى أن وسط المحل فارغ والناس يطلون عليه من فوقه ومن العجائب التى رأيناها هناك شجرة خارجة من المحل شيئا بشىء حتى استوت على ساقيها ثم ابدت أوراقها وازهارها الى أن خرج من ازهارها نساء ملتفين

بالأوراق وتكلمنا مع بعض من حضر فكشف الغيب أن الشجرة ليست حقيقة وانما هى صورة فقط وتلك النساء يضحكن ويلعبن وهذا أيضا من أغرب ما رأينا » .

ثم يصف ميدان السباق ويصف « بالونا » طار بثلاثة اشخاص ويصف الآلة التى تصنع الدراهم وفيها يقول :

فلو ابصروا ليلى اقروا بحسنها
وقالوا بانى فى ثناياها مقصر

فى فرساى :

ويذهب الى قصر فرساى فيصفه قائلا :

« هو قصر السلاطين غير بعيد عن المدينة ركبنا كروسة الدخان ووصلناه على ثلث ساعة فلما دخلناه دخل معنا خلق كثير نساء ورجال لا يمكنهم الدخول فى كل وقت وتعجبنا من ذلك التشييد الغريب من سوارى الرخام والمرمر العزيز الموجود والتصاوير والتمائيل العجيبة مع ضخامته وصعوده فى الجو وتعداد مقاعده ، ومنازهه مشرقة على بستان ذى أشجار وأنهار وأكمام وأزهار وادخلونا موضع بيت السلطان وجدناه لا نظير له فى جميع الأمصار والأوطان وذلك أن الكراسى وسرير الرقاد وآلات البيت كل ذلك مصوغ من الذهب الخالص المتقن مع ما يتبع ذلك من التمويه والتزليج والتصاوير والمرآة المشننة وبه عدة تماثيل منحوتة من الرخام الجيد لا فرق بينها وبين الآدمى الا بعدم النطق ، سألنا عنها فأخبرونا انها صور ملوك فرنسا ، مشينا داخل القصر ثلاث ساعات وما رأينا ثلثه ولا عشره .. ثم دخلنا البستان الذى بجانبه ولا نتعرض لذكر بهجته واتساعه .. لان ذلك شىء لا يفى به القلم » .

ولما شهدت تلك المياه وحسنها وبدائع نعيمها مع تلك الأشجار المحدقة من كل جانب واستواء صفوفها وترداد ألحان اطيارها ولطيف نسيمها .. تمثلت بقول الشاعر فى وصف دمشق :

أرض محل الامانى عن أماكنها
بحيث تجتمع الدنيا وتفترق
اذا أنشد الطير فى اغصانها وقفت
على حدائقها الاسماع والحدق

« وذلك من أعجب ما رأينا »

وفى اليوم العاشر من مايو - ايار عندما اقيم الحفل الكبير حاول السيد سليمان الصيام أن يصفه بكثير من التفاصيل - خاصة عندما اصطفت الصفوف وخرج الامبراطور وبدأت أفراح الاستعراضات - من بدايتها الى نهايتها ويقوده حب الاطلاع فيسأل ، مثل ما يسأل صحفيونا اليوم عن عدد الجيوش التى شاركت فى الاستعراض فيقال له ٨٠٫٠٠٠ « كما حضر كثير من الناس ، من جميع الاجناس قد قطعوا المسافات البعيدة وبذلوا الأموال الجزيلة لمشاهدة حسن تلك النزهة وكان جملة من حضر مائتان وأربعون ألف شخص وما منهم الا ويقول ما رأينا مثل هذا اليوم قط فى الحسن والبهاء » ..

خرجنا من حسناء باريس :

ثم يستمر السيد الصيام فى وصف الحفلات والليالى وسهرات الأعيان من رجال الدولة مثل ما يصف مراسل أحد الصحف العصرية اليوم أو أحد كتاب الروبورتاج .

فيصف قاعات الرقص والاستقبالات التى خصصت لهم من طرف رجال الدولة وعلى رأسهم الامبراطور نفسه ووزير الحربية آنذاك وهو الجنرال الاستعمارى سانت آرنو .

ثم يقول « وشرعنا فى الخروج من حسناء باريس الى مدينة ليون » .

لكنه لم يسمح لنفسه بالخروج من باريس الحسناء دون أن يشرح جمالها وطيبة أهلها حتى يقول فيها :

ديار لها الحصباء در وتربها
عبير وأنفاس الرياح شمول
سلسل منها ماؤها وهو مطلق
وصح نسيم الروض وهو عليل

كان هذا الروبورتاج نتيجة لهذه الرحلة التى سمحت بها احتفالات العرش ، تلك الرحلة التى استغرقت شهرا وبضعة أيام أى من ٢٣ ابريل ـ نيسان الى ٢٥ مايو ـ آيار عام ١٨٥٢ .

وقد نشرها السيد سليمان الصيام فى حلقات متسلسلة بلغت خمس مقالات طويلة بعنوان واحد (رحلة ابن الصيام) ولم يفصل بينها بعناوين فرعية مثل ما يعمل محققو الروبورتاج حاليا ، والترفيه الوحيد فى هذه السلسلة هو مقتطفات من شعر البحترى كما رأينا أولا فى صلب المقال .

ولقد بدأ فى نشر هذه السلسلة بعد عشرين يوما تقريبا من رجوعه من فرنسا أى فى ١٥ يونية ـ حزيران عام ١٨٥٢ .

ولم يكن السيد سليمان الصيام ينفرد فى تغطية اخبار هذا الاحتفال ، واعطاء جمهور الجزائريين تفاصيل مهرجاناته ، بل كان معه واحد آخر من أعيان عمالة قسطنطينة الذين دعاهم نابوليون أيضا لهذا الحفل ، وهو السيد محمد السعيد على الشريف الذى قدم هو الآخر عرضا أكبر تفصيلا وامتع تنويعا واقوى مادة من عرض السيد سليمان الصيام . ولكن فضل

السبق فى النشر (١) هو الذى جعلنا نقدم السيد سليمان الصيام على السيد محمد السعيد على الشريف الذى سوف نقدم له عرضا وتحليلا لمقالاته الممتعة المتنوعة .

وقد يكون هذا السبق راجعا الى قرب مسكن السيد سليمان الصيام الى العاصمة حيث كانت تصدر الجريدة بل من المعتقد أنه كان يملك دارا فى ضاحية الجزائر (بحسين داى) وقد يكون بعد مسكن السيد محمد السعيد على الشريف من العاصمة هو الذى جعله يتأخر عن نشر مقالاته الطويلة الممتعة .

من هو سليمان الصيام هذا :

وختاما لهذا الموضوع لابد من اعطاء بعض التفاصيل عن شخصية هذا الرجل :

هو سليمان بن الصيام من مواليد مليانة ومن المعتقد أن أباه كان من أعيان الجهة ، لم نعرف تاريخ ميلاده ولا المكان الذى تلقى فيه تعليمه الا أنه يقال بأنه كان من الذين سهلوا التوغل الفرنسى فى المنطقة ، وقد عينوه « آغا » بمدينة مليانة . وهذا مما يدل على أن عائلته كانت مرموقة فى المنطقة .

ولقد ارتكز الفرنسيون فى بادىء الأمر على هذه الطريقة لحكم البلاد بواسطة الأعيان قبل أن يحكموها مباشرة . وكان السيد سليمان من بين الذين استقبلهم نابوليون فى احتفالات «كومبيان» والعرش .

وكان من بين الذين استقبلوا نابوليون عندما زار الجزائر للمرة الثانية عام ١٨٦٥ وهو يحتل منصب الأغاوية وقد تناول

---

(١) راجع جريدة المبشر ابتداء من ١٥ يونيو – حزيران ١٨٥٢ .

مع الامبراطور والامبراطورة طعام الغداء صحبة الأعيان فى قصر الصيف ــ قصر الشعب حاليا ــ بالجزائر العاصمة .

ونحن لا يهمنا فى هذا الموضوع مواقفه السياسية وتعاونه مع الفرنسيين ولكن الذى يهمنا هو الجانب الثقافى وسبقه الى هذا الفن الصحافى الذى كان حتى ذلك الحين وقفا على فرنسيين مستشرقين أو نصف مستشرقين أو بعض جزائريين مجهولين لم تظهر اسماؤهم حتى ذلك الحين .

وعلى هذا الأساس فانه يعتبر **الصحفى الجزائرى الأول** ، اذا حق فيه هــــذا الاسم ولو ان مقالاته لم تتجاوز الخمس حلقات . وانا لم نعثر له على كتابات بعدها . وللزيادة فى معرفة أسلوب الكتابة فى ذلك العهد سننشر مقالات ابن الصيام وابن على الشريف فى كتيب مستقل .



الفصل الثانى

محمد السعيد على الشريف

رأيه فى الحكم والحكام

أمثلة عن حياة الخلفاء

ردود الفعل

لا يوجد من العدل الكامل الا قليله

خير الأمور العلم

محمد السعيد فى الأراضى الفرنسية

السيد محمد السعيد على الشريف البجاوى

●● أول الكتاب الجزائريين الذين كتبوا سلسلة من المقالات ذات الطابع الصحفى ، بلغت أكثر من سبعة عشر مقالا .

— وكان داعيا لنشر العلم والمعرفة والثقافة التى بها تزدهر الحضارة وتتقدم الأمم .

— وكان داعيا للعدل فى حكم الرعية بكتاباته عن الملوك القدامى الذين اشتهروا بالعدل مع رعاياهم .

— وكان أول من طالب بازدواج اللغة — عربية وفرنسية — فى تعليمنا بوجه عام .

كان السيد محمد السعيد على الشريف من بين أعضاء الوفد الذى مثل مقاطعة قسنطينة فى احتفالات العرش بفرنسا عندما نصب لوى نابليون امبراطورا على عرش فرنسا سنة ١٩٥٢ .

ولقد سافر أعيان الجزائر مدعوين من طرف نابليون لمشاركة الفرنسيين أفراحهم .. وكانوا مقسمين الى ثلاث جماعات حسب المقاطعات الجزائرية الثلاث حينذاك — قسنطينة — الجزائر — وهران . فكان السيد سليمان الصيام ، الذى سبق الحديث عنه فى الفصل الأول ، ضمن وفد مقاطعة الجزائر .

وكان السيد محمد السعيد على الشريف ضمن وفد مقاطعة قسنطينة . أما الأعضاء الآخرون فلا نعرف عنهم شيئا وخاصة وفد مقاطعة وهران .

والتحقت الوفود بعضها ببعض وتجمعت فى العاصمة الفرنسية ، وكونت « وفد الجزائر الرسمى » لاحتفالات العرش ، ولما كان السيد محمد السعيد على الشريف من مثقفى الجزائر

وقتئذ وظهر اسمه فى قائمة المدعوين ، طلب منه بعض « الأمراء المحبين » من أصدقائه أن يسجل فى سفره هذا ، ما يشاهده بين فرنسا ، وما يعاينه من الأمور الغريبة والأشياء العجيبة (١) ولبى رغبة أصدقائه « خشية ملامهم » .

لقد اجابهم السيد محمد السعيد على الشريف لمطلبهم بكلمات متواضعة بسيطة شرح فيها عدم كفاءته فى هذا الميدان ، ميدان سرد الحوادث وتدوين الملاحظات فيقول :

« أجبناهم مع قصر فهمنا وعدم لحوقنا بهذه المرتبة — أى مرتبة الكتاب الأدباء — التى تتفاخر بها فحول الرجال المطلعين على دقائق المسائل ومغزى الأقوال ، وحيث لم يبق خلاف أى لم يبق له أى عذر — أقول ما استطعت بحمد الله تعالى وحسن توفيقه (وأساله) أن ييسر أمورنا ويبلغنا الأمل » .

وسافر السيد محمد السعيد صحبة الأعيان الآخرين الى فرنسا وحضر الاحتفالات فيها وشاهد « أشياء يعجز الانسان عن ادراكها » . وبعد رجوعه من هـــذه الرحلة بدأ يكتب فى الصحافة المقالات الطوال فى ميادين عديدة ومختلفة ، وكأن هذه الرحلة قد فتحت له آفاق التفكير ودلته على وسائل التعبير ، فجاءت مقالاته ممتعة ومركزة تترك القارىء يتشوق الى مطالعتها ومترقبا القادمة منها ، وقد فاق بأسلوبه السيد سليمان الصيام المليانى ، والسيد محمد البدوى وأمثالهما . ولقد كانت مقالاته تلك حقا مقالات أديب ، ولذلك كانت جريدة « المبشر » تعنون مقالاته أحيانا بالعنوان التالى : من كلام الأديب محمد السعيـــد بن على الشريف .

---

(١) جريدة المبشر عدد ٢٠ يناير ١٨٥٣ .

رأيه فى الحــكم والحكام :

ظهر أول مقال له فى جريدة « المبشر » ـ الجريدة الفرنسية الحكومية الناطقة باللسان العربى فى الجزائر يوم ٣٠ يناير عام ١٨٥٣ . وقد استهلة بقوله : « الحمد لله الذى جعل اللســـان عنوان عقل الانسان وآلة تظهر سر الجنان بفصيح العبارةوصريح البيان . وسبحان الله الذى خلق الأنهار وخلق الليل والنهار » .

وبعد أن يهدى المقال للجنرال راندون والى «مملكة الجزائر» يتطرق فيه الحديث عن الهدوء و « العافية التى هى أهم كل مهم والتى بها يتم العمل وتزداد الخيرات والنعم العامة » . ويستدل على ذلك بأن الدولة الفرنسية لم تنتصر فى حروبها الا بالعافية والعدل » !

ويسترسل فى الحديث بأسلوب « الواعظ المرشد المصلح » مطالبا بالعمل والاحســان فيقول :

« وحقيق ان العمــل ميزان الله فى أرضـــه وانه مقرون بالاحســـان ، فاذا كان الملك عــادلا وجبت محبته كمــا وجبت (محاربته) عند الجور والظلم » .

« لقد سأل الاسكندر حكيما عن العدل والشجاعة أيهما أبلغ فقال : اذا استعملت العدل استغنيت عن الشجاعة ، وان عدل السلطان أنفع من خصب الزمان » .

بهذه الأمثلة الحكيمة كانت أقواله بليغة وكتابته صريحة .

وبعد ذلك ينتقل الى الحديث عن محاسن نظـــام الحــكم الفرنسى ، والمعتقد أنه كان يقصد فى حديثه نظامهم فى فرنســا ، لا فى الجزائر التى طلب لها « الهدوء والعافية » فى مطلع مقاله ، خاصة وانه كان قد زار فرنسا منذ ستة أشهر وأقام بها أكثر

من شهر وبضعة أيام ، وشهد نظامها ، بل درس أحوالها وحياة سكانها ونظام حكمها ، والعدل المخيم على رعاياها .

وعلى ضوء ذلك ثبت له أن صلاح الحكم لا يكون الا بصلاح الوزراء والأعوان ورجال الدولة ، فان صلحوا صلح وان فسدوا فسد .

ولا يفوته أن يقول كلمة فى معالجة المظالم على أسس قواعد العقل وقوانين العدل الذى « لا يعم الصلاح والفلاح الا بمراعاته ولا يتم التناصف الا بمباشرته » .

ولقد قلنا انه قدم هذا المقال باهدائه للجنرال راندون والى « مملكة الجـــزائر » . فهل نفهم من ذلك انه كان يقــول لذلك الجنرال ان هذا الشعب ـ شعب الجزائر ـ لا يحكمه ظالم أو متجبر وانه لا يلين الا للعدل ؟

لعل فى كلمته التى ختم بها هذا المقال ما يفسر لنا ذلك ، فهو يقول : « وعلى كل حال ان ما حصل من رغبة هذه العمالة فى طاعة الدولة افرنسوية الا لوقوفها على العدل باحكام وقوانين مؤسسة ، حيث ان الملك ـ الحكم ـ بالجنود والجنود بالمال ، والمال من البلاد ، والبلاد بالرعايا ، والرعايا بالعدل » .

وخلاصة هذا المقال يبدو كله توطئة لـما سيأتى بعـده من مقالات يظهر فيها محاسن الفرنسيين وعدلهم !

أمثلة عن حيـاة الخلفاء :

وفى مقال من مقالاته استرسل فى سرد بعض القصص التى وقعت لبعض الأعراب أو اليهود مع خلفاء الدولة الاســـلامية الكبرى ، وخاصة منهم المنصور والمـأمون ، وكيف كان هؤلاء يحكمون بالعدل بين الناس ، ويأخذون حق المظلوم من الظالم ،

ولو كان الظالم من عائلة الخليفة مثل ما وقع لامرأة مع العباس فأخذ الخليفة المأمون حقها منه وزادها عطية من بيت مال المسلمين .

وكذلك ما وقع ليهودى مع أحد ولاة الخليفة عبد الملك ابن مروان فأخذ الخليفة عبد الملك حقه من عامله ثم عزله عن منصبه .

وبعدها ينتقل الى الحديث عن « مجتمعنا » فيأتى بقصة مخزيه لأحد رجال المخزن حيث قام باعتداء على أحد المواطنين الذى سبق أن أكرم هذا « المخازنى » ورفاقه .

ثم يستخلص السيد محمد السعيد من ذلك قوله :

« كيف يستقيم الملك بهذه الأفعال الذميمة والمظالم الرذيلة العجيبة .. تأملوا فى مثل هذا (تجدون) الفرق العظيم بين سيرة أهل الجزائر وسيرة أهل فرنسا فى جميع الأمور » .

وكأنه يقول لبنى قومه اتعظوا من هؤلاء الناس . وينتهى الى الحكم القاطع بأن الأعمال كلها تصلح بصلاح الوالى وتفسد بفساده .

ردود الفعل :

كانت لهذين المقالين ردود فعل كثيرة فى أوساط الجزائريين، مما يدل على أنهم كانوا يقرأون هذه الجريدة ويتتبعون الحوادث ومجرياتها ، ودليل ذلك هو أنه ما كادت تنشر « المبشر » مقالين متتاليين له حتى وجهت الانتقادات اللاذعة لصاحبهما من أناس لا شك أنهم كانوا فى مستواه أو أكثر ثقافيا وفكريا مدافعين عن العدل الذى كانت أرض الاسلام والعروبة ، الجزائر ، مصدره ، والاحسان الذى كانت ديارهم وما تزال منبعه ، وأن ما قيل فى الفرنسيين انما هو تملق لهم ونكران للذات .

وكأنى بهم يقولون للكتاب : أين عدل الفرنسيين فى بلادنا وهم يحرقون النساء والأطفال والشيوخ فى المغارات عزلا أبرياء ؟؟

ـ أين عدل الفرنسيين واحسانهم وهم المعتدون على أرضنا وديارنا ومغتصبوا أموالنا وأرزاقنا ويحتلون أرضنا ؟؟

ـ أين عدل واحسان الفرنسيين الذين يستعدون لشن حرب على منطقة جرجرة الأبية التى بقيت حتى ذلك التاريخ (١٨٥٢) ، بل حتى تاريخ (١٨٥٧) مرفوعة الرأس شامخة المجد ، لا تريد للحرية بديلا . وتأبى الا أن تكون محاربة أبية كعادتها عبر التاريخ .

لا يوجد من العدل الكامل الا قليله :

ورغم هذه الانتقادات اللاذعة الموجهة الى الكاتب فان السيد محمد السعيد لم يتزحزح عن مكانه ولم يتراجع فى موقفه ، بل ازداد صلابة وقوة فى هجومه على الفساد الذى كان سائدا فى المجتمع الجزائرى والعربى ، ولذلك أجاب على المنتقدين بمقال ثالث فتحدث عن العدل ونظام الحكم العادل ، وان الحكم يدوم ولو للروم اذا كانوا عادلين ، وأن الملك لا يدوم اذا كان طابعه الظلم والفساد والجور ولو كان بيد المسلمين المتقين ، وهو كأنه يقول للناقدين صراحة ان الحكم بالعدل فى الجزائر .. سيبقى ولو بيد الفرنسيين ، وانه لا يستقر فى الجزائر بالظلم ولو كان فى يد المسلمين .

ثم يقول ، فالذى نعلمه :

ان الملك يدوم مع العـــدل
ولو كان للروم المعـــاند
ولا يدوم مع الظلم والجـور
ولـــو كان لمســلم عابد

ثم يقول :

فلم أر مثل العـــدل رفعة
ولم أر مثل الجور للمرء أضيعا

ويتراجع قليلا فيما قاله عن عدل فرنسا فيناقش الناقدين قائلا :

« ان كان العدل كاملا فى قطر من الأقطـــــار أو ايالة من الايالات (١) فانه نادر ، والنادر لا حكم له . وبالجملة ان العدل الكلى الحقيقى لا يوجد الا قليله ، فانه كالحلال الصرف أو الايمان الكامل ، واطالة كلامنا فى هذا المعنى هو جواب لبعض الظرفاء من اخواننا الذين أنكروا علينا هذه المقالة وزعموا ان العـــدل والاحسان لهم لا لغيرهم ، مع أن عامة العباد امتازوا بهذه الأحكام ثم يحاول تقديم الأدلة على صحة قوله ويجادل الناقدين بالبرهان فيقول :

« فلو كان الخير فينا ما سبقنا احد لمثل هذه الفضيلة ، وانما (نكون) نحن أولى بها من كل جنس اليها من كل انس .

« فكيف لو كانت بوطننا صافية ، ما ذهبت الدول السالفة على سوء حال وخيبة آمال ، فالحاكم الكبير يذكر عنـــد الظلم عدل الله » .

ويختم جداله معهم بحمد الله على النعم الشاملة والخـــيرات المترادفة التى « كانت لها فرنسا سببا » .

خير الأمور : العلم :

وينتقل السيد محمد السعيد على الشريف فى آخر المقال الى

---

(١) محافظة من المحافظات .

الحديث عن العلم وفوائده ، وينصح بالتعلم ، ويذكر المدارس التى انشأتها (١) سلطات الاحتلال والتى أعادت فتحها من جديد .

وبعد ان يحلى الموضوع بأبيات شعرية تحث على العلم ، يتحدث عن العلوم فيقول : « ان العلوم أربعة : الفقـه للاديان ، والطب للابدان ، والنجوم للازمان ، والنحو للسان » ..

وهكذا ينتهى من المقال الثالث ويستمر فى المقـال الرابع فى الحديث عن النجوم والكواكب وساعات الليل والنهار .. ومنزلة العلم والعلماء .. ثم يطالب بالتنقيص من الجهل شـيئا فشيئا « حتى نقضى عليه » ، ويرجع فيعدد فروع العلم قائلا :

كل العـلوم لعلم الفقه أتبـاع
وان تجافتـه افهـام واطبـاع
والنحـو أركانه التى يقـوم بهـا
روح وقلب وابصـار واسـماع

وكان السيد محمد السعيد على الشريف من الرجال المتفتحين على الثقافات الأجنبية ، بل أنه كان معجبا بالعلوم الغربية ، وكان يطلب من مواطنيه أن يتعلموا اللغة الفرنسية « لأسباب عدة وخاصة لقضاء حاجتهم وبلوغ مآربهم » .

فهو فى المقال الخامس يهاجم الذين منعوا صبيانهم من الذهاب الى المدارس الفرنسية وحتى العربية التى كانت سلطات الاحتلال تشرف عليها وتراقبها ، وتتهمهم بالتزمت كما يهاجم سكان البادية الذين رفضوا معالجة أمراضهم عند أطباء فرنسيين ولو كان ذلك العلاج مجانا .

---

(١) بقرار من نابوليون انشئت ثلاث مدارس عام ١٨٥٢ لتخريج المترجمين للجيش والقضاة والائمة وعدد ضئيل من المعلمين .

ويتهم الجميع بالجهل وقلة المعرفة ، بلهجة تشم منها الشدة والعنف لمنع صبيانهم من أخذ العلم فى المدارس التى انشأتها حكومة الاحتلال فى مطلع الخمسينات من القرن الماضى ، حيث كانوا «يزعمون ان صبيانهم سيخرجون من دينهم اذا تعلموا فى المدارس التى أعدها البايلك لهم » .

ومن هنا نرى ان « صاحبنا » هذا كان داعيا للعلم والتعلم بوجه عام « وخصوصا اللسان الفرنساوى لاحتياجنا اليه غاية الاحتياج فى الحال والمال ، وبه يتوصل ذو الحاجة الى حاجته واستيعاب حاجته على الوفاء والكمال » .

ومن هذه الناحية يمكن أن يكون **أول جزائرى دعا لازدواج اللغة،** واعطاء اللغة الفرنسية مكانة مرموقة فى تعليمنا بوجه عام بعد بياناته لضرورة تعلم اللغة الفرنسية والعربية والقضاء على الجهل بشتى الوسائل . يرجع مرة أخرى ليعدد « محاسن الفرنسيين فى هذه الديار بما صنعوا من طرق ودار مأوى للشيوخ والمتسولين . وارسال الاطباء الى البادية لمعالجة المرضى فيها » ..

وكان السيد محمد السعيد بكتابته تلك يقول لأبناء وطنه تعلموا العلم والمهن عن هؤلاء الفرنسيين « الذين صنعوا فى الجزائر أشياء لا يستطيع أن يقوم بعملها غيرهم فى مئات السنين » .

وقد جلبت اليه مقالاته تلك انتقادات كثيرة من مواطنيه . والحقيقة أنه مهما كانت خدمته للعلم صادقة متحمسة ومقالاته الرنانة فى الوعظ والارشاد وطلب اصلاح النفوس الا أنها كانت تخدم الوجود الفرنسى ، واثبات عظمة فرنسا أكثر مما كانت تخدم المجتمع الجزائرى .

ومن كثرة فوائدها بالنسبة للدخيل ، فان الفرنسيين قد اهتموا بنشرها فى جريدتهم وابرازها فوق صفحاتها ، بل انهم ذهبوا

الى ان نشروها فى الصفحة الأولى لكثير من الاعداد ، وهذا مما يدل على اهتمامهم بما يكتب هذا « الاديب » لتغذية أفكار مواطنيه بفخامة وعظمة الدولة الفرنسية . وهذا القول يأتى بنا الى أن نقول :

فانه اذا كان لكل نظام حكم — فى كل زمان ومكان — دعاة له ومدافعون عنه بالخطب الرنانة فى المحافل والمناسبات ، أو بالاقلام السيالة على أعمدة « صاحبة الجلالة » أو على صفحات الكتب التى تملأ بالحجج والبيانات والبراهين محاولة منهم لاقناع النـــاس بصواب نظامهم وبعدل حكمهم فان نظام حكم الجنرال راندون قد حاول أن يجعل من قلم الأديب السيد محمد السعيد وشخصه داعية لاثبات صحة « عظمة فرنسا وقوتها وعدلها الذى سادت به البلاد والعباد » .

ولنترك هذا الجانب لأنه لا يهمنا فى دراستنا هذه ، كما سبق لنا أن قلناه فى خصوص شخص السيد سليمان الصيام المليانى . ولعله يأتى يوم يقوم فيه أحد كتابنا فيقدم دراسة أو دراسات عن شخصيات النصف الثانى من القرن الماضى وتعاونهم مع الدخيـــل الغادر .

وما يهمنا نحن من هذه الدراسة هو أســـلوب الكاتب العلمى ومقدرته التعبيرية الكتابية ، وعلى الأخص منها الجانب الصحافى .

لقد سبق أن قلنا فى الفصل الأول عن أول كاتب جزائرى ظهر اسمه فوق أعمدة الصحافة ، وهو السيد سليمان الصيام المليانى انه يعتبر أول جزائرى كتب فى الصحافة ، ومن ثم فهو أول صحفى . ووضعنا كلمة « أول صحفى » بين قوسين ، وسبب ذلك انه كتب خمس مقالات فقط عن زيارته للاراضى الفرنسية .

اما السيد محمد السعيد على الشريف الذى كتب فى العام قبل أن يكتب عن احتفالات باريس ، ثم كتب عن المجتمع الفرنسى ، وكتب

فى السياسة ، وانظمة الحكم العادلة والغير العادلة ، وكتب يستنكر أمراض المجتمع وينتقد تأخره، فان لقب السياسى الصحفى لاينازعه فيه منازع .

قلنا « السياسى الصحفى » لانه كان يشغل منصبا سياسيا فى دائرة بجاية وبقلمه السيال كان يعبر عن آرائه بأسلوب صحفى .

ولم نقل « الصحفى السياسى » لأنه لم يكن يمتهن الصحافة ، ورغم ذلك فان السيد محمد السعيد على الشريف كان أول جزائرى يكتب سلسلة من المقالات لجريدة « المبشر » بلغت سبعة عشر مقالا امتدت على كامل سنة ١٨٥٣ . وقد كان الوحيد فى الميدان طوال هذه المدة . ولو لم يسبقه السيد سليمان الصيام بنشر مقالاته عن رحلته لفرنسا فى السنة الماضية ١٨٥٢ لكان السيد محمد السعيد أول صحفى جزائرى .

السيد محمد السعيد فى الأراضى الفرنسية :

عندما دخل الأراضى الفرنسية صحبة « الوفد الجزائرى أخذ به حب الاطلاع الى مراقبة الحياة فى هذا البلد واخـــذت ذاكرته تسجل ما كانت تقع عيناه عليه » .

من ذلك انه استرسل فى وصف الأرض وغللها وتنسيق غراسة أشجارها وعظمة مدنها وبساتينها الزاهرة . فيقول فى بستان مدينة « مونبيليى » يصف أغصان الأشجار والحان الطيور :

والغصن ميـــــاس القـــوام كأنه
نشـــوان يصبح بالنســـيم ويغبق
والطير ينطق معــربا عن شـــجره
فيكاد يفهــم عنــــه ذلك المنطق

قــــرد تغنى للغصـــــون فتنتشى
طربا جيـوب الظــــل منـــــه تشفق
والنهـــر لمــا راح وهــو مسلسل
لا يســـــتطيع الرقص وهو يستنشق
فتلك الايام لا تمــــل فانهــــــا
ريحـــانة الزمان الذى يســتنشق

ثم يصل الى مدينة « نيم » فيعجب صاحبنا اسمها الرقيق فيقول : فمن عنوان ظاهرها علمنا حسناها واما مدينة (طارسكو) و (أفينيون) فيقول فى أحد قصورها الشامخات :

قصر عظيم ترى كل الجمـــال به
واســـعد الدار تبـــدو من جوانبها

أما باريس وسكانها فيصفهم قائلا :

« اما أهل الاستيطان بباريس (فهم يبلغون) نحو مليون من الانفس وزيادة ، ومحيطها – أى باريس – سبع فراسخ ومطاياها فضلا عن غيرها من المدن » .

« ولا تزال تسمع قرقعة العربات (اعنى الكرارس) ليلا ونهارا دون انقطاع » .

اننا نراه هنا يستعمل أسلوب الرحالة فى وصف البلدان وأهلها ثم يستطرد قائلا :

« وأعلم أن أهل باريس مختصون من بين .. أهل فرانسة بذكاء العقل ورقة الفهم ودليل ذلك انهم لا يميلون بالطبيعة الى الجهل والغفلة ،كما رأينا بغيرها ، ولا يقلدون أصلا وانما هم يحبون معرفة الشيء بأصله والاستدلال عليه بنفسه حتى تعـــلم عامتهم القراءة والكتابة ودخلوا مع غيرهم فى الأمور العميقة .

« وكل صاحب فن من الفنون (عليه) ان يبتدع شيئا من فنه لم يسبق احد اليه أو يكمل ما ابتدعه الغير . ومما يعينهم على ذلك (رغبتهم) زيادة الكسب وحب السمعة ودوام الذكرى » .

هذا ويستمر فى وصف طرق حياتهم من معاش الى البسة الى أخلاق . وعندما يصل فى وصفه الى مكانة المرأة يقول :

« أما النساء فانهن سيدات رجالهن وهم كعبيد تحت أمرهن ، ولم يسعهم مخالفتهن قط سواء كن جميلات أو غير جميلات » .

ويستغرب من هذه العادة السائدة عند الاوربيين ، وهو ان كان يمدحهم فى ميادين أخرى من حياتهم فلا يوافقهم فى هذا الميدان فيقول :

« ان علم النساء لم يدركه الفرنساوية ، والله أعلم كيف أنهم على رأى نسائهم و (تحت) قبضتهن ، مع أنهن ناقصات عقل ودين ، على كل حال فاو اطلع المسلمون على ذلك لا ستغربوه وتعجبوا منه » .

ثم يشرح نظريته فى المراة بقوله : « انما النساء فتنة يلعبن بعقول الناس .. وما من فتنة فى الدنيا الا وسببها امراة نعوذ بالله من شرهن ومكرهن .. والحقيقة كما قال الشاعر :

ان النســـاء كأشــجار نبتن لنا
منهن مــــر وبعض المــــر ماكــول

فانهن متى ينهــين عن طبـــع
فانه واجب لا بـــد مفعـــول

بعد هذه الأبيات يعود الى وصف المرأة الفرنسية وصفا رائعا فى حسنها ولطافتها وأنوثتها وسهراتها الليلية فى قاعات الرقص ، تميل مع انغام الموسيقى العذبة مختلطة بالرجال . ويقول « رغم

انهم لم يكونوا – هو وزملاؤه – يفهمون من أصوات الغنائين شيئا الا انهم كانوا يتذوقون أنغام الموسيقى العذبة » . ويستشهد بقول الشاعر :

لم أفهم معناها ولكن
ودت كبدى فلم أجهل شجاها
فكنت كأننى أعمى معنى
يحب الغانيات ولا يراها

« هذا بعض ما سمعناه وما علمناه من عجائب التياطر (المسرح) والبالات (قاعات الرقص) بحضرة سعادة السلطان لوى نابوليون».

لقد كان مشابها كل الشبه ، فى بعض ما كتبه ، للسيد سليمان الصيام حيث سبقه اليه هذا الأخير . ولذلك أهملنا الكثير من مقالاته ولم نعلق عليها .

وفى الاعداد ١٤١ و ١٤٢ و ١٤٣ و ١٤٤ من جريدة « المبشر » كتب مقالات عن الخيل بعد ما شهد محاسنها ومساوئها ، بل ذهب الى أبعد من ذلك فأرخ لها حياتها وكيف عرفها الانسان ابتداء من آدم ، وكيف كان اسماعيل ابن ابراهيم الخليل عليهما السلام أول من رسنها ، وكيف كانت العرب تثأر للفرس وتقتص للطمته ، وانه من مقالاته هذه التى استطرد فيها ضمن مقالاته على الوطن الفرنسى يظهر الخيل بتاريخها وأسمائها وألوانها وتشابه نبلها بنبل الانسان .

وبعد هذه المقالات رجع الى الحديث عن غرائب باريس وما شهده بالديار الفرنسية . وفى الحلقات الاخيرة يتحدث عن أخبار الملوك الاكاسرة فى فارس وكيف « كانوا عادلين مصلحين » ،

كما تحدث عن ملوك القياصرة الروم . ويختمها بمقال طويل عن العقل فى الانسان نشره فى العدد ١٥٣ من نفس الجريدة .

وبعد هذا المقال انقطعت عنا أخباره الثقافية الى عام ١٨٧١ ، ايام اندلاع ثورة المقرانى فى منطقة جرجرة الأبية .

وقد سبق هذه الانطلاقة اجتماع عقده أعيان المنطقة فى داره بالناحية ، وقد شارك فى هذا الاجتماع مشاركة فعالة الى جانب الحاج محمد الحداد ومحمد المقرانى والسيد عزيز الحداد وعمار ايت أو قاسى واحمد بومزراق . وبعد أن فشلت الثورة وألقت سلطات الاحتلال القبض على رؤسائها الذين بقوا على قيد الحياة وحاكمتهم أمام محكمة حربية بقسنطينة ، حوكم هو أيضا مع الشيخ الحداد . وأصدرت المحكمة ضده حكما بخمس سنوات سجنا (١) .

هذا هو السيد محمد السعيد على الشريف الذى شاءت الاقدار ان يكون ثان جزائرى كتب سلسلة مطولة من المقالات على صفحات « المبشر » الجريدة العربية الثالثة فى العالم ، على الاطلاق .

وبذلك يكون هو والسيد سليمان الصيام أولا من دشن فن الكتابة الصحفية فى الجزائر باللسان العربى على الاطلاق ، وذلك عامى ١٨٥٢ و ١٨٥٣ (٢) .

---

(١) من مخطوط عن ثورة المقرانى عام ١٨٧١ المؤلف .

(٢) سننشر مقالات السيد على الشريف بكاملها وبالحرف الواحد مع مقالات السيد سليمان الصيام فى كتيب مستقل لتمكين الدارسين من الاطلاع على اساليب الكتابة فى ذلك الزمان .

الفصل الثالث

أحمد البدوى

ولادته ونشأته

ثقافته تظهر على صفحات الجريدة

البدوى يحدث انقلابا فى الجريدة

دخول الجزائريين لعالم الصحافة

ظهر اسمه لأول مرة على الصحافة سنة ١٩٦٥

أحمـــد البدوى

منذ أكثر من مائة عام كان ســـكرتير تحرير لجريدة المبشر ١٨٥٠ ــ ١٨٧٦ .

●● تحدثنا فى الفصل الاول من هذه الدراسة عن الســيد سليمان الصيام ، وتحدثنا فى الفصل الثانى عن السيد محمـــد السعيد بن على الشريف . وفى هذا الفصل الثالث نتحدث عن السيد أحمد البدوى ، الذى كان من شباب العاصمة الأوائل الذين التحقوا بصفوف المقاومة بعد أن انتهك الفرنسيون اتفاقيات السلم (بالتافنة) ، وقد قدر لهذا الشباب :

١ ــ أن يكون كاتب سر للامير عبد القادر الذى كلفه بمهام عديدة لدى خلفائه فى مناطق مختلفة من وطننا .

٢ ــ وأن يقاوم الفرنسيين سنوات طوالا صحبة السيد بن سالم خليفة الأمير عبد القادر فى منطقة جرجرة الأبية حيث كان يشغل منصب كاتبه العام ، ولم يكن يومها تجاوز ريعـــان الشباب .

٣ ــ وأخيرا أسندت له سكرتيرية تحرير جريدة «المبشر» العربية التى أصدرها الفرنسيون فى عام ١٨٤٧ . ويجرنا الحـديث عن السيد أحمد البدوى الى الحديث عن مثقفى الجزائر فى ذلك العهد أو بالاحرى فى النصف الاول من القرن الماضى . ولكن عدم وجود المراجع والمصادر القديمة (١) التى أتت عليها يد الخراب والفناء ، جعلنا نعجز كل العجز عن تزويد هذا البحث بالمعلومات الكافية .

---

(١) ان الحديث او الكتابة عن رجال الجزائر المثقفين فى النصف الاول من القرن الماضى اصبحت فى عصرنا هذا من الصعب بمكان بحيث صارت المراجع الاصلية الجزائرية منعدمة تماما ، من جراء محاولة العدو طمس جميع العالم =

ومع أن التاريخ لم يحفظ لنا شيئا يمكننا من معرفة ثقافتهم وما قموا به من ادوار فى مجتمعهم ، الا أن بعض الاضواء تكشف لنا من حين لآخر ، شخصية ما من تلك الشخصيات التى حاول العهد الاستعمارى النحس أن يضعها فى عالم النسيان ، اما بالقتل فى أثناء المعارك الحربية أو بالنفى أو الاهمال ، ومنهم من استسلم الى مشيئة القضاء والقدر وقبلوا بالأمر الواقع ، وكان من هؤلاء السيد أحمد البدوى والسادة حمدان بن عثمان خوجه ، وبودربة، وابن جواد دران ، والسيد أحمد بن الطاهر وآخرون كثيرون .

ولقد كانوا جميعا مثقفين ومتفتحين على ثقافة العالم الغربى اذ كانوا يتنقلون ، خلال أسفارهم العديدة لأوروبا ، بين مختلف دولها وخاصة منها دول حوض البحر الأبيض المتوسط .

لقـــد كان السيد القاضى أحمد بن الطاهر قاضيا على مدينة أرزيو ، وكان معلما للامير عبد القادر وعلى يده تعلم الأمير عبـــد القادر واطلع على تطور الحضارة الغربية ومن ثمة فهو مربيه، وكان هذا القاضى عالما بشئون وأحداث أوروبا من جراء كثرة أسفاره وتنقلاته فيها .

وكان السيد حمدان بن عثمان خوجه امينا عاما لآخر حكومة جزائرية وهى حكومة « الداى » حسين ، وهو أيضا مثقف ثقافة عالية باللغتين العربية والفرنسية وكان متتبعا ومهتما بالاحداث الاوربية وخاصة أحداث حوض البحر الأبيض المتوسط ، ولقـد قام بأسفار كثيرة الى بلدانها هو الآخر .

وكان السيد جودا بن دران ــ وهو يهودى الديانة ــ مثقفـا

= الحضارية ، والثقافية ، بالقضاء على المخطوطات النفيسة ، التى كان يجمعها خلال حملاته العدوانية ، على مدننا الامنة ، ويبعث بها الى الدهاليز المنسية فى الثكنات لتقضى عليها الحشرات .

ديبلوماسيا ماهرا مقتدرا وان مقدرته جعلت الأمير عبد القادر يعينه ممثلا ديبلوماسيا له لدى سلطات الاحتلال الفرنسية .

أما السيد بودرية فكان أيضا مثقفا ومن كبار التجار الجزائريين الذين كانوا على علاقة دائمة مع البلاد الاوربية وتجارها وبالتالى كان على علاقة مع العالم الخارجى (١) .

ولقد كان السيد بودرية يملك مخازن فى (مرسيليا) المدينة الفرنسية ، ولقد تزوج هنا من امرأة فرنسية وانجبت له طفلا سماه اسماعيل ، وصار هذا الابن فيما بعد مترجما من مترجمى الجيش الفرنسى فى الجزائر (٢) .

والى جانب التجارة كان السيد بودربة ديبلوماسيا كبيرا اذ كان يمثل بلاده كقنصل هناك وبوضعه هذا كان يفيد بلاده بما يحدث فى العالم الأوروبى .

وأما السيد أحمد البدوى وهو بيت القصيد فى دراستنا هذه ، فهو من مواليد العاصمة وقدر له أن يعيش مع الأمير عبد القادر ويشاهد بطولاته ويصاحب السيد ابن سالم ويخوض القتال الى جانبه ثم يصبح صحفيا مقتدرا ، بعد أن فشلت وسائل المقاومة وتغلب الظلم على الحق ، وعم الجبروت والطغيان .

ولادته ونشـأته :

ولد السيد أحمد البدوى فى الجزائر العاصمة حوالى عام ١٨٢٠ فى عهد دايات الجزائر من عائلة محترمة ونشأ فى ظلها .

وتلقى تعليمه الابتدائى بالعاصمة ، وتعليمه العالى بالجامع

---

(١) انظر كتاب « تاريخ الجزائر المعاصرة » للمسيو شارل اندرى جوليان .
(٢) انظر مترجمى الجيش لشارل فيرود Charles Feraud

الكبير (١) ، وتعلم اللغة الفرنسية . ولكن الكتب لم تحدثنا عن المكان ولا عن الطريقة التى تعلم بها هذه اللغة .

ـ فنحن نجده بعد ان وضع السلاح وركن الى الأمر الواقع مترجما بارعا بعد أن عينه الفرنسيون سكرتيرا فى ديوان الترجمة، ويشهد ببراعته وكفاءته الفرنسيون أنفسهم ، وذلك قبل أن يتولى تحرير جريدة « المبشر » .

وبعد أن عاش مع عائلته الست السنوات الأولى من العهد الاستعمارى فى مدينة الجزائر وشاهد الفرنسيين وعاشرهم اغتنم فرصة اعلان الحرب من طرف الأمير عبد القادر على الفرنسيين عندما ضربوا باتفاقيات (التافنة) عرض الحائط واجتازوا منطقة أبواب الحديد ـ أو البيبان ـ عام ١٨٣٩ ، فلتحق بصفوف المقاومين فى منطقة مليانة وكان قائد الجيش ، وخليفة الأمير عبد القادر هنالى ، البطل الشاب محمد بن علال .

وكان أحمد البدوى شابا يافعا لا يبلغ العشرين من عمره فشارك جيوش الأمير التى اكتسحت سهول المتيجة والسواحل البحرية الغربية فجذب نشاطه نظر الأمير عبد القادر اليه ، فأخذه معه وعينه سكرتيرا بجانبه .

لكن هذه الحقائق الطبيعية لم تكن تعجب الفرنسيين الذين حاولوا أن يكتبوا عنه فيما بعد ليظهروا شخصيته فى مظهر آخر تكون مرآة لمن يريد أن يقتدى بها من أذنابهم والمتعاونين معهم ، فكتب المسيو شارل فيرود يروى القصة حسب توجيه معين ، وقد كان من كبار المترجمين بالجيش الفرنسى بعد ثورة المقرانى ، فقال :

---

(١) نفس المصدر السابق (مترجمو الجيش) .

« وبما ان جميع الطرق كانت مقطوعة من طرف العدو (عبد القادر) الذى أراد أن يمنعنا من الاتصال بالشعب العربى، وجد البدوى نفسه ، وقد كان فى زيارة لناحية مليانة ، فى وضع يستحيل معه الرجوع الى عائلته التى بقيت فى الجزائر .. ولما كانت معارفه مشهورة أخذه الأمير عبد القادر كسكرتير بجانبه ».

من هذه الأسطر نفهم ما الذى كان المسيو شارل فيرود يهدف اليه . انه كان يهدف الى التقليل من الموقف الوطنى الذى اتخذه هذا الشاب وهو ما زال فى ريعان الشباب بالالتحاق بصفوف الأمير عبد القادر ووضع نفسه فى خدمة القضية الوطنية.

ولذلك نرى المسيو فيرود يهمل الحديث عن الأسباب التى قادت الشاب احمد البدوى الى ناحية مليانة وحالة الحرب تنذر بالخطر . ومن هنا نحكم بأن هذه الأسباب المجهولة التى قادت احمد البدوى الى مليانة لم تكن شيئا آخر سوى الواجب الوطنى والالتحاق بالجهاد والمقاومة .

وفى صحبة الأمير عبد القادر كان يقوم بالاضافة الى أعماله الدائمة بشئون سكرتارية الامير بمهام خطيرة وكبيرة لدى خلفاء الأمير فى المقاطعات التى كانت تحت سلطته وخاصة عندما يقوم قادته بعمليات حربية ضد العدو وكم كانت هذه العمليات كثيرة. ومن هؤلاء القادة الذين كان يقوم بمهام لديهم السادة :

بركانى .. بن علال ..

بو حميدى .. وبن سالم ..

ولقد كان الشاب أحمد البدوى يقوم بهذه المهام على أحسن ما يرام فى أى ناحية يوجه اليها .

ولما كان نشاطه ديناميكيا طلبه الخليفة السيد بن سالم من الأمير عبد القادر لكى يقوم معه على الدوام فى منطقة جرجرة

الشامخة ، ولبى الأمير طلب قائده وأرسل الشاب الوطنى أحمد البدوى الى جرجرة ليقيم مع السيد بن سالم ويرتبط بشخصه ويقاتل الاعداء الى جانبه سنوات طوالا .

بالرغم من الجهد الجهيد الذى بذله هذا القائد البطل بن سالم لمقاومة الاعداء وتغلغلهم فى أراضينا يعجز القلم واللسان عن وصفه تغلب الظلم والجبروت على الحق والعدل الى حين ثم وضع ابن سالم السلاح .. ورجع أحمد البدوى الى عائلته التى تغيب عنها السنين الطوال .

ووصل خبره الى الجنرال دوماص الذى كان مديرا للشئون العربية فى حكومة الاحتلال .

فأسرع الى استدعائه لمقابلته والتحدث معه لاكتسابه ولاشك ولكى يعرض عليه منصبا من المناصب الادارية ؟ — وبعد المقابلة أخذه معه الى مكتب المارشال بيجو Bugeaut وقدمه اليه .

وبعد المقابلة مع المارشال بيجو عينه هذا الأخير على الفور سكرتيرا مع ترجمانه الرئيسى المسيو ليون روش Leon Roches (1) فى ديوان الترجمة .

---

(1) المسيو « ليون روش » Roches هو الجاسوس الفرنسى المعروف الذى ادعى الاسلام وانضم الى الامير عبد القادر ووضع نفسه فى خدمته بعد اتفاقيات التافنة ، ويقال انه تزوج بمسلمة . وبعد اندلاع الحرب انسحب خفية والتحق بالجيش الفرنسى فعين مترجما بالجيش بالدرجة الثانية . وفى عام ١٨٤١ — ١٨٤٢ أرسله المارشال بيجو الى الاراضى المقدسة للتجسس على الشخصيات الجزائرية التى ذهبت الى الحج ، وقد توصل بدهائه الماكر أن يتحصل على فتوى من علماء الاسلام المجتمعين فى البقاع المقدسة يجيزون فيها قبول نظام حكم مسيحى على أمم اسلامية فيما اذا عجزت عن دفع خطر الغازى المحتل . ثم شارك فى الوفد الذى قام بتسطير الحدود الجزائرية المغربية عام ١٨٤٥ ، وكان الوفد برئاسة الجنرال دولارو (De la Rue).

وبوضعه هذا كمترجم فى ديوان الترجمة لحكومة الجزائر المحتلة ، كان الغزاة يحملونه معهم خلال حملاتهم العدوانية على شعبنا ليكون ـ صحبة المترجمين ـ الوسيط بينهم وبين السكان .

ومن يدرى ، فلعله وهو يصاحب القوات الفرنسية فى حملاتها العدوانية كان يحاول ـ وهو المقاوم القديم ـ أن يقدم خدمة جديدة لوطنه فى قالب آخر بالتخفيف على الاقل من شدة الظلم والجبروت على مواطنيه باستعمال وضعه الجديد الذى فرضته عليه الأحداث القاهرة .

ومن بين هذه الحملات التى اخذوه معهم اليها ، حملتهم على قبيلة « فنيسة » ومعركة « ازلى » بالحدود الغربية ، ربابور مع راندون عام ١٨٥٣ وجرجرة عام ١٨٥٤ .

وفى خلال هذه المدة كان يعمل مع المترجمين الرئيسيين دوش Roches وشوصبو Schousboe وظرا لثقافته الواسعة ومقدرته على التحرير والكتابة نقل من قسم الترجمة بالحكومة العامة الى قسم الصحافة الذى كان يشرف عليه البارون دوسلان Le Baron de Slane وكان ذلك أيام أن أسست حكومة الولاية العامة جريدة المبشر « لادخال حضارة الاوربيين على عقول الاهالى » حسب زعمهم .

من مترجم الى صحفى :

وبصدد دخوله فى عالم الصحافة يقول المسيو **Feraud**

«Il était en suite mis à la disposition de Monsieur le Baron de Slane lorsque le gouvernement créa le Journal Arabe le «Mobacher» pour inculquer au Indigénes nos idées de Civilisation».

من هذا القول تتضح لنا بعض الاضواء وهى :

اذا كان السيد أحمد البدوى أحيل كما يقول المسيو فيرود على قسم الصحافة بعد أن أسست جريدة المبشر ، فأننا نفهم من ذلك أنه دخل فى عالم الصحافة عام ١٨٤٧ وهو التاريخ الذى أنشئت فيه « جريدة المبشر » وبالتالى فأنه يعتبر الصحفى الجزائرى رقم ١ .

بل ولو لم يدخل عالم الصحافة فى هذا التاريخ والتحق به فى الخمسينات مثلا فانه يبقى دائما الصحفى رقم ١ .

وبالاضافة الى شهادة المسيو شارل فيرود فان شهادة أخرى لا تقل اهمية عن الأولى قد نشرت فى هذا الصدد فى جريدة الافريقى L'Africain القسنطينية التى صدرت عام ١٨٥١ بقسنطينة تؤكد أن السيد أحمد البدوى كان محررا بجريدة المبشر فى وقت مبكر .

ولقد اعطت له جريدة الافريقى هذا اللقب ـ محرر جريدة المبشر فى خبر لها عن تأسيس لجنة لتنفيذ قرار « ٣١ ديسمبر ١٨٥٩ » الذى يعيد تنظيم القضاء الاسلامى ، وكان السيد البدوى من بين اعضاء هذه اللجنة صحبة الأستاذ الشيخ حميدة العمالى مفتى المالكية بالجزائر والسيد محمد بن مصطفى المعين بالمحكمة وثلاثة فرنسيين آخرين .

ثقافته الواسعة تظهر على وجه الصحيفة :

وفى هذه الوظيفة الجديدة أو مهنة الصحافة استعمل أحمد البدوى جميع طاقاته الخلاقة ومقدرته فى التحرير ، الشىء الذى جعل الجريدة تتغير من حالة ركيكة منحطة الى حالة تحسن وتقدم وأن مجرد نظرة خاطفة على اعدادها التى صدرت ابتداء من عام ١٨٥٠ فصاعدا ، تجعلك تقدر الفرق الشاسع بينها وبين الاعداد الأولى منها .

ولقد شغل منصب سكرتير التحرير بها مدة طويلة لم اتمكن من معرفة تاريخ ابتدائها بالضبط ولا تاريخ نهايتها . ولكن يمكن أن أقدم ، على سبيل الاحتمال هذا التاريخ ، وهو انه استمر فى هذا المنصب من عام ١٨٥٠ ؟ الى ١٨٧٦ ؟ .. وبذلك يكون قد اشتغل بالصحافة أكثر من ربع قرن كامل .

والذى يجعلنى أقدم هذا التاريخ على سبيل الاحتمال هو ما ذكره عنه الترجمان المسيو شارل فيرود Charles Feraud عام ١٨٧٨ فى كتابه (مترجمو الجيش) قوله :

« بأنه ما يزال يشغل منصب سكرتير التحرير الآن ــ أى ١٨٧٨ ــ فى جريدة المبشر » .. ومن المعروف أن منصب سكرتير التحرير فى تلك الأيام هو ما نسميه حاليا : « منصب رئيس التحرير » اذ لم يكن هذا الاسم قد ظهر بعد فى عالم الصحافة حينذاك .

ولقد سبق أن شهدنا من قبل المسيو ادريان بيربروغر Adrien Eerbrugger يعين سكرتير تحرير بجريدة المنبه الجزائرى Le Réveil Algérien ويشرف على تحريرها من ١٨٣٥ الى ١٨٣٧ ، ثم سكرتير تحرير المجلة الافريقية . Revue Africaine

ومعنى هذا أن بيربروغر كان يشغل منصب رئيس تحرير جريدة المنبه الجزائرى ثم منصب رئيس تحرير المجلة الافريقية فيما بعد والتى كانت تصدر شهريا .

البدوى يحدث انقلابا فى الجريدة :

بعد هذه العجالة القصيرة فى حياة السيد أحمد البدوى وتطورها نلقى نظرة خاطفة على أسلوب الجريدة من ناحية الاخراج والتنويع فى مادتها .

لقد تحسنت الجريدة تحسنا ملحوظا فى خلال الخمسينات فصارت تنوع مواضيعها بشكل جميل . فمثلا أصبح القارىء يجد فيها مقالات ترشد فيها الناس الى كيفية تسمير الخيل ومعالجة امراض حوافرها ، وكيفية جز الأغنام ، وتربيتها ، وطريقة زرع القطن ، ومكافحة الجـراد .

لقد تطورت الى هذه الميادين تحت أشراف السيد أحمد البدوى بعـد أن كانت لا تتعدى نشر البلاغات العسـكرية والقضـائية والحكومية التى كانت جميع مادتها تترجم من الفرنسية فأصبحت تنشر المقالات العربية ، اى المادة العربية البحتة .

وطبعا فان طبيعة التقدم والتطور تطلب المزيد من التقـدم ، وهكذا فما كادت تصل الى الستينات حتى خطت خطوات أخرى فى ميدان التطور الصحفى ، فأنتقلت الى نشر الدراسات العلمية ونشر الأخبار والمقالات الاجتماعية .

لذلك نجدها تنشر حلقات متسلسلة من كتاب علمى عربى وهو كتاب الجغرافية للشيخ رفاعة الطهطاوى وقد كتب فى أسـلوب شيق رائع . ولم تكتف الجريدة ــ اذا لم نقل لم يكتف السـيد أحمد البدوى بهذا ــ بل تطرقت الى ميدان الشعر فنشرت القطع العديدة منه . وكذلك الالغاز لتسـلية قرائها ولا شك ان هـذا التقدم فى تنويع مادتها يرجع الفضل فيه الى السيد أحمد البدوى .

دخول الجزائريين الى عالم الصحافة :

وفى الستينات دخل عامل جديد على حياة هـذه الجريدة ، وهو دخول نخبة من المثقفين الجزائريين عالم الصـحافة فجعلها هذا العامل تنقلب من جريدة رسمية همها الوحيد نشر البلاغات والبيانات الحكومية باللغة العربية لكى تصل الى مسامع الجزائريين كافة ــ الى جريدة كاملة من كل النواحى ، وبأتم معنى الكلمة .

فعندما دخلت هـذه النخبة القليلة فى حياة جـريدة المبشر ، وانضم أساتذة ومترجمون الى أسرتها صـارت تاتى بأخبار مصر وتاريخ الأوائل من ملوكها وسكانها ، كما صارت تنشر رسـائل لطلبة المدارس السلطانية ـ وخاصـة منها مدرسـة الثعالبية ، وتظهر فيها مقالات تنصـح المواطنين بزراعة (زريعة) الكتان . وفيها أخبار من المدن وأخبار اجتماعية من مختلف نواحى الوطن .

اما الدراسـات التاريخية ، فنجدها تنشر أبحاثا عن حيـاة البايات فى الجزائر ، وقد خصصت « لصالح بأى » موضوعا طويلا غطى خمسة أعمدة فى عدد (٤١٥) ليوم (٢) مارس ـ آذار عام ١٨٦٤ .

ولما كان السيد البدوى واسع الاطلاع والمعرفة فقد كان ينشر قصصا عن الذئاب والثعالب على سبيل التسلية من جهة ، ولما فيها من المعنى والرموز من جهة أخرى وهى لا شـك منقولة عن كتب معتبرة مثل : كليلة ودمنة او كتاب الف ليلة وليلة وكتـاب مروج الذهب ، بل فقد كان ينشر حلقات متسلسلة عن مسرور الخادم والخليفة هارون الرشيد نقلا عن كتاب الف ليلة وليلة . وكان ينقل حلقات مختارة من كتاب مروج الذهب عن ملوك الهند ولعبة النرد والشطرنج . وعلى ذكر الهند أنقل بعض الابيات من قصيدة طويلة بعث بها أحد علماء الهند ـ ويسـمى احمد ـ الى أحد علماء الفرنسيين ويدعى (فارسان دوناس) وهو يصف فيها تمثالا كان بعث به اليه هذا الأخير . ويقول فى مطلعها :

« الم تعلموا ام قـد علمتم باننى
قـد جـاءنى تمثال من ماله مثـل
نظـرت اليه ناظـرا متـاملا
فالقته فرعا له الفـرع والأصـل
فذلك محـكى وهـذا حـكاية

تدل على أصـــل كريم له فضـــل
متال له النـــور وفى النـــور حجـــة
فواها لشـــمس متل هـــذا لها ظـــل
اذا ما ضراته الأعين يحـــوص نظـــرة
تراها فى أحـــداقها اعـــين جـــزل
له المجـــد والتبجيل والمجـــد والعلى
وما دونها الابرام والعـــدل والبـــذل
فهذا المجد والتبجيل والمجد والعلى
نفـــوز وتخفيها ، وأنتم لها أهـــل »

واذا كان ينقل الأحاديث والقصص عن الهند ومصر فانه لم ينس الحديث أو النقل عن الدولة العثمانية والتونسية .

لقد كان ينقل المقالات الطـــوال عن جريدة الجوائب العثمانية التى كانت تصدر فى اسطنبول والتى كان محررها الأستاذ احمد فارس الشدياق الذى كان يعاصره .

أما عن تونس فقد كان ينشر حلقات مطولة لكتاب ألفه العلامة خير الدين التونسى عن البلاد الأوربية ولكنه لم يذكر اسم هـــذا الكتـــاب .

قلت انقلبت هذه الجريدة من نشرة رسمية للبلاغات الرسمية الى جريدة حقيقية بعد ان انضم اليها جماعة من المثقفين الجزائريين من اساتذة ومترجمين ولكننى لم أذكر من اسمائهم شيئا ، وقـــد حان الوقت لكى أقدم بعض الاسماء التى لمعت فى ميدان العـــلم والصحافة ، ففى مطلع سنة ١٨٦٤ بدأت تظهر فوق صفحات هذه الجريدة مقالات وكتابات جزائرية عربية بحتة ، مـــادة وروحا ، وأسلوبا ، منها رسالة مطولة بعث بها طالب يدعى المختار بن أبى العباس الى أحد أقاربه اسمه « محمد » يحثه فيها على مزاولة

العلم والمعرفة . وفى الرسالة يمدح له المدرسة ونظامها وكيفية الدروس بها ثم يستدل على ذلك بأبيات من الشعر . ونشرت هذه الرسالة ، على أربعة أعمدة كبار . ولا شك بان المدرسة الممدوحة كانت « الثعالبية » .

وكتب طالب آخر رسالة عن مدرسة خميس مليانة يمدح فيها هو الآخر مدرسة مليانة . هذا من ناحية الطلبة .

اما الأساتذة فقد كتب فيها : السيد ابن السادات وكان أستاذا بمدرسة قسنطينة ومديرها .

والحسن بن بريهمات وهو أيضا أستاذ بمدرسة الثعالبية ومديرها وقد كان مستشارا بالعمالة (١) .

اما المترجمون فقد ظهرت أسماؤهم تحت تراجمهم فى هذا التاريخ ومنهم السيد أحمد بن لفكون المترجم بالجيش الفرنسى .

وسوف اتحدث عن الباقين عندما أصل الى الحديث عنهم .. ولكن هذا الاستطراد كان ضروريا حيث املته على هذه الحركة الفكرية الصحفية وابعادها السياسية فى وقت تغلبت فيه قوى الشر والطغيان على بلادنا ، وظهرت فيه فكرة تأسيس مملكة عربية بالجزائر خاصة وان صاحب الفكرة هو امبراطور فرنسا نفسه ، وهى لعمرى فكرة تتطلب الدرس والاستنتاج .

من يدرى لعل السيد أحمد البدوى يريد استعمال هذا السلاح .. لتدعيم فكرة المملكة العربية فبدأ يجمع حوله نخبة من المثقفين الجزائريين ؟

---

(١) اى بالمحافظة او الولاية .

اعود الى صاحبنا السيد أحمد البدوى ، وقد ابتعدت عنه كثيرا فى منعرجات شعب الأحداث ، وما كان ينبغى على الابتعاد عنه اولا حب الاطلاع على خفايا التاريخ .

ظهر اسمه لأول مرة فى الصحافة سنة ١٨٦٥ :

لم يظهر اسم السيد البدوى فوق أعمدة الصحافة الا فى أيام زيارة الامبراطور لوى نابوليون للجزائر فى شهر مايو - (أيار) عام ١٨٦٥ .

فكتب بهذه المناسبة مقالا مطولا مدح فيه خصائل الامبراطور نابوليون .. وقال : « ان مدحه لقليل فى حقه وان ما قدم من ترحيب كمن يهدى القطر للبحر ؟ » .

لكل مقام مقال ولكل مجال رجال :

بدأ السيد البدوى مقاله الطويل بحمد الله ثم قال : « دعتنى قريحتى فى سلك هذا الميدان - ميدان المدح - وان كنت لست من السباق بقصر الباع . فأنى مزاحم لذوى العقل والشأن ، ثم تذكرت وان لكل مقام مقال ولكل مجال رجال . فتخيل لى وانه كمن يهدى القطر لابحر ، وقلت لنفسى ويحك ما تقولين فى حق من اجتمع فيه من المحامد ما تفرق فى غيره ، لا تفتحى بابا يعييك سده » .

انظر كيف يحدث نفسه متواضعا ينهيها عن الدخول فى سباق مع ذوى العقل والشأن وهى قصيرة الباع يعنفها بقوله : ويحك ما تريدين أن تقولى فى حق من اجتمع فيه من المحامد ما تفرق فى غيره ؟ لا لا ارجعى لا تفتحى بابا وأنت لا تستطيعين سده .

ثم يقول فى تواضع أكثر :

« لكن قويت عزمى وقلت مستعينا بالله :

« حمدا لمن اقدم القطر الجزائرى ، بعد أن كاد يتمزق : وشكرا

له مادامت الأيام تتناسق ، فسبحانه من كبير متعال ، مقلب القلوب من حال الى حال .

« فقد كان هذا الوطن الجزائرى ، فى الفارط مرتقيا ، ثم صار فى انحطاط وتأخير ، وبالقهقرة فى شأنه يسير ، فكشف الله عنه الظلام باشراق نور الحق ، والحق ، سبحانه وتعالى أرسل لنا سلطانا عادلا ، يحب الخير والصدق .

« فتشرفت الجزائر بطلعته مرتين ، ففى الأولى وعدها بوعد وأنجز . وهذه المرة قال لها امددى يدك لأشيلك لا روع عليك . فأجابت بلسان حالها نعم نعم نعم أدركنى ها أنا منتظرة اليك » .

ان فى هذه الأسطورة ما يغنينا عن النطق والقراءة . وأن نغمات الموسيقى الوطنية تخترق أسماعنا وأن النشيد الوطنى الذى كان يتغنى به قلم السيد أحمد البدوى وهو صامت لتبدو لنا أبياته ناطقة صامتة فى تكرار تلك الأسماء الغالية علينا العزيزة وهى :

- اقام القطر الجزائرى .
- كان هذا الوطن الجزائرى .
- فكشف الله عنه الظلام .
- فتشرفت الجزائر بطلعته .

انها حقا نغمات الوطنية الخالصة خرجت من قلب وطنى صميم ترجمها حروفا ، قلم وطنى عاشق لكتابة اسم الجزائر ويهوى كتابة الضمير (هـ) العائد عليها .

ويترك السيد أحمد البدوى العنان لقلمه السيال فيسترسل فى الحوار قائلا :

« قال لها اهنىء وقرى عينا فأنا لكى سأكرمك وأحظيك .

فأستبشرت وزهت حتى كادت ترقص طربا ، فكانت أيام وصالها غررا فى وسط الدهر لاح فيه من السرور على وجوه البشر ، شيء مالا يحصر . الا وهو سلطاننا نابوليون امبراطور الفرنساويين والعـرب ..

ان لغة هذا القلم لا تحتاج الى تفسير فهى بينة وواضحة وجلية فهى تبين مقـدار طموح الجزائريين الى انشـاء مملكة عربية بالجـزائر وما قـوله : الا وهو سـلطاننا نابوليون « امبراطور «الفرنساويين والعرب » الا تدعيما لفكرة انشاء مملكة عربية بالجزائر ، والمطالبة بانجازها .

ونفهم من هذه السطور ايضا مقدار الأمل الكبير الذى كان الجزائريون يعلقونه عليه ، لانجاز ما وعد ، وخوفهم مما يخبئه لهم الدهر اذا تنحى هذا الامبراطور أو مات ، لذلك نجد السيد البدوى يطلب من الجزائريين أن يلتفوا به وأن يدعوا له بدوام العز وطول العمر . وفى ذلك يقول :

« فعليكم يا اخواننا المسلمين بالدعاء لبقاء هذا السـلطان العظيم الذى أستنار به هذا العصر وجعلنا فيه بمثابة أبناء جنسه فى القدر ، حينئذ له علينا حقان حق الأبوة ، وحق الامارة .. تعالوا نجد فى عون من جذبتكم حنانته .

ثم يقول على لسان الامبراطور : « ان مراده أعزه الله أن يذيقنا حلاوة العيش ورفاهيته ويرجعنا الى ما كان عليه أسلافنا من الفضل والمعرفة .. »

هناك تنكشف خفايا السيد أحمد البدوى ولم يستطع اخفاءها بل هو يصرح علانية على ما ينتظر الجزائريون من الامبراطور لكى يرجعوا الى عهد أبائهم وأجدادهم الأولين .

أحمد البدوى والترجمة :

لم يكن السيد أحمد البدوى يهتم بسكرتيرية التحرير التى هى مراجعة المادة ومراقبة تصحيحها وتوضيبها وترتيبها فقط بل كان يكتب الأخبار . وبالاضافة الى هذا وذاك كان يقوم بترجمة المقالات بل القصص الطوال من اللغة الفرنسية الى العربية .

وفى هذا الميدان قام بتعريب قصة (غونزالف القرطبى) مع الملك سعيد ملك فاس واحدى البنات العربيات القرطبيات .

والقصة لفرنسى لم يذكر اسمه وهى تمثل طورا من أطوار الصليبية التى شنها الغرب على المسلمين فى الأندلس ، ولم يحدد مؤلفها تاريخ تلك الحروب الا انه ذكر ملوكها منهم الملك فردنند والملك السعيد سلطان فاس . وجعل من بطل قصته أسبانيا يدعى غونزالف القرطبى وقد وقع فى حب بنت عربية وقعت عينه عليها أمام قصر الحمراء بقرطبة ، وتدعى سليمى .

والشىء الذى يؤثر فى هذه القصة التى عربها السيد البدوى هو وصف الأماكن الأثرية التى تركها العرب هناك ولا شك أن السيد البدوى لم يعربها الا من أجل الذكرى .

ولقد وصف كاتبها الابيات الشعرية التى كتبت على أبواب العمارات والمحاكم والقصور والقاعات .

وختاما لهذه الجولة مع السيد احمد البدوى أنقل عنه هذه الأبيات التى عربها لقرائه منذ أكثر من مائة عام وقد كانت مكتوبة على باب محكمة قرطبة وهى الدار التى كان يجلس فيها الملك ليحكم بين الناس .

واليك الأبيات :

ألم تخش يا ذئب وانى لك ناظر
فربك يمهل ثم يبطش اذا غضب
فيا ايها اليتيم محزن حائر
فكن مطمئنا لا تخاف من العطب
هنا تجد الأب الحنين مجاورا
يقيك من الأسوار والضنك والكرب

أما باب البيت المختص لاجتماع الملكة وجواريها فقد كتب فوقه ما يلى :

هنا اجتمع الجمال والحسن والحيا
سلوان وحب ثم عزبة اكتسبت
مفاخر لم تدرك مآثرها بدت
مروؤة زانتها وبالسر اكملت
بها عقد التاج المرصع مهابه
وعضت لا تمنع مزايا وان جلت
فحبنا صاف ليست فيه نقيصة
شجاعتنا عن شدة الغضب اكتفت
ألم تر أن الليث بالغاب قانع
يصيل لمرضاة الحبيب ذابدت

ويحيط بهذا المجال الذى هو مجمع المسرات والطرب بستان اشهى وأبهج منه .

هكذا عاش السيد أحمد البدوى وهكذا ناضل السنين الطوال الى أن وافته المنية وترك ولدا يشبهه حماسة ووطنية كتب له أن يكون أول جزائرى ينظم حركة سياسية طالبت بالاستقلال عام ١٨٧٠ و١٨٧١ .

وبعد ، ان الكتابة عن شخصيات الجزائر في هذه المدة أو الحقبة من تاريخ بلادنا لأصعب ما تكون وأن التاريخ لم يحفظ لنا من نشاطاتها شيئا تقريبا نظرا لجبروت الدخيل ومحاولاته لفرنسة البلاد والعباد وبالتالى فلابد من القضاء على حضارة البلاد ، ومحو شخصيتهم وثقافتهم ، يضاف الى ذلك الحروب الطويلة التى أتت على الأخضر واليابس .

وان ما قمت به فى الحلقتين الماضيتين من الكتابة عن شخصيتين مثقفتين ومتفتحتين على الثقافات العالمية ، وحفظ علوم الغير فى مطلع النصف الثانى من القرن التاسع عشر ، انما أردت من ذلك اظهار تاريخ تبنى الجزائريين علوم الصحافة والدخول فى فلكها والكتابة فيها وابداء الرأى .

واننى أعترف بأنه مهما كانت ارادة الفرد قوية صلبة فى البحث والتدقيق عن آثار أجدادنا فانه لا يستطيع أن يعطى هذا الموضوع حقه بمفرده بحثا ودراسة .

وانه لا يمكن أن يحقق هذا الواجب الا جهــود جماعة من الاخصائيين فى علم الدراسات ، لهم القدرة والصبر على المداومة .

لكننى آمل أن تكون هذه الدراسة المتواضعة البسيطة مرجعا متواضعا لمن يقوم فى يوم من الأيام بدراسة حسب ما تتطلبه أسس العلم الحديث ويؤرخ للاجيال القريبة والبعيدة الغابرة ، ويلقى عليها الأضواء من هذا الجانب .. وأملى كبير فى أن يكون هــذا اليوم قريبا .

الفصل الرابع

سليمان بن على الحزائرى

رواد النهضة

احمد فارس الشدياق

بطرس البستانى

رزق الله حسون الحلبى

عبد الله النديم

خليل الخورى

رسالة نابوليون الى بيلسيى

سليمان بن على الحرائرى (1) :

●● فى هذا الفصل من الحديث عن الصحافة والصحافيين الجزائريين نتعرض بالحديث الى جماعة من حملة الأقلام البارعين ظهروا فى الربع الثالث من القرن الماضى .

وبما أنهم جماعة ظهروا الى الوجود فى عالم الصحافة فى أوقات متقاربة أجد نفسى مضطرا الى الحديث عنهم بدون تقيد التسلسل الزمنى وانتقل من هذا الى ذاك دون ترتيب .

الآن وبعد أن تأكد لنا من هو أول جزائرى امتهن الصحافة وفن المقال بعد أن عرفت الجزائر والجزائريون هذا الفن واحتكوا به سنوات طوال — وبعد الحديث عن سليمان الصيام (المليانى) ومحمد السعيد على الشريف (البجاوى) والسيد أحمد البدوى (العاصمى) انتقل من الجزائر الى العاصمة الفرنسية باريس للحديث عن صحفى ظهر هناك يدعى الشيخ سليمان بن على الحرائرى .. ظهر هذا الصحفى فى عالم الصحافة عام ١٨٥٨ بظهور جريدة (برجيس باريس وانيس الجليس) التى أسسها السيد الكونت رشيد الدحداح اللبنانى عام ١٨٥٨ بباريس . وقبل هذا التاريخ وحتى عام ١٨٦٢ . لم يكن لصاحبنا حديث يذكر .

لعب السيد سليمان بن على الحرائرى التونسى دورا صحفيا فى هذه الجريدة العربية المنطق والباريسية المنشأ ، حتى أصبح رئيس تحريرها . وبما أن هذا الصحفى الشيخ سليمان بن على الحرائرى قد ظهر فى عالم الصحافة على صفحات هذه الجريدة فى باريس

---

(1) السيد سليمان بن على الحرائرى من مواليد تونس أى أنه تونسى ولعب دورا كبيرا مع رواد الصحافة بالجزائر من خلال مقالات نشرت له فى جريدة المبشر .

فيجدر بنا أن نستعرض حياة هذه الجريدة وحياة مؤسسها التى كانت جزءا من حياة الشيخ سليمان بن على الحرائرى وهو فى ديار الغربة .

أسس هذه الجريدة فى باريس السيد الكونت رشيد الدحداح اللبانى (١٨٥٨) وكان يصدرها نصف شهرية وقبل أن يصير صحفيا تقلب صاحبها هذا فى مناصب عديدة فى بلاده ثم امتهن التجارة فى مدينة مرسيليا التى قضى فيها اثنتى عشرة سنة والتى منها ارتحل الى باريس ليوقف نفسه لخدمة الآداب العربية ولقد نشر بعض الدواوين الشعرية ثم أنشأ جريدة (برجيس باريس) التى كان يشحنها بالمقالات الهامة الرنانة فى كثير من الميادين وخاصة الميادين السياسية والتاريخية واللغوية والآداب .

واستمر السيد الكونت رشيد الدحداح يصدر هـذه الجريدة من ١٨٥٨ الى ١٨٦٢ ، وفى هذه السنة زار العاصمة الفرنسية محمد الصادق باى تونس وطلب من فرنسا قرضا ماليا فوجد فى الكونت رشيد الدحداح معينا لتحقيق مآربه فأكرمه لذلك وأحسن مثواه وبعد رجوعه الى تونس استدعاه وكلفه بمهام هناك .

وعند ذلك سلم الكونت رشيد الدحداح مصيرجريدة (برجيس باريس وانيس الجليس) الى صاحبنا السيد الشيخ سليمان فتولى تحريرها واستمر مدة سنة كاملة ثم توقفت عن الصدور بعد ذلك وبقيت أسباب توقيفها مجهولة وبقى مصيره هو مجهولا كما بدا مجهولا .

أما قيمة هذه الجريدة فى عالم الصحافة فوصفها السـيد أديب مروة فى كتابه « الصحافة العربية » (صفحة ١٥٢) كما يلى :

« هى جريدة سياسية نصف شهرية .. كان يديرها الأب فرانسيس بورقار رئيس مدرسة القديس لوى وتعتبر من اكبر

الصحف العربية من حيث ضخامة حجمها وجودة حروفها واتقان طبعها واتساع مواضيعها وقد ذاعت شهرتها واقبل الأدباء على الاشتراك فيها من جميع الأقطار العربية .. »

وبما أن هذه الجريدة لم تعمر الا خمس أو ست سنوات ١٨٥٨ ــ ١٨٦٤ فالغالب على الظن أن التاريخ لم يحفظ من اعدادها شيئا اللهم الا اذا كانت مكتبة باريس قد امتازت بذلك ؟ ومن ثم لا نستطيع أن نحكم على كتابة الشيخ سليمان بن على أو أسلوبه فى التحرير ومدى اتساع أفقه السياسى والعلمى وعلى كل فاذا سمحت لنا الظروف سوف نبحث عليها فى مكتبات أوروبا علنا نطلع على كتابته وأسلوب تعبيره ومن باريس أريد أن أفتح قوسا لكى أعرج على المشرق العربى وألقى نظرة عن النهضة الفكرية والصحفية هناك ، قبل أن أعود الى الجزائر البلد السجين آنذاك .

فى هذا الوقت بالذات من تاريخ الأمة العربية نجد فى مشرقنا العربى نخبة ممتازة من حملة الأقلام الصحفية والتأليف وعلى رأسهم السيد رفاعة رافع الطهطاوى والسيد أحمد فارس الشدياق العشقوتى .

رواد النهضة :

فى هذه المرحلة من التاريخ العربى عامة وتاريخ الجزائر بوجه خاص ، التى نكتب حاليا عن أرباب أقلامها ، من هم أرباب الأقلام الصحافية فى المشرق العربى ؟ وجوابا على هذا السؤال نقول :

كان السيد رفاعة الطهطاوى ، الذى يعتبر اليوم رائد النهضة العربية الحديثة فى هذا الوقت الذى نكتب عنه بالنسبة لصحفى الجزائر ، يتزعم حركة كبيرة للترجمة تضم جيشا من الأدباء والعلماء والكتاب والمترجمين هدفها هو نشر الثقافة والعلم بواسطة ترجمة الكتب العلمية الأوربية ، ولقد دفع السيد رفاعة

الطهطاوى الى القيام بهذه الحركة وتزعم هذا النشاط الفكرى الكبير ، تلك النهضة العلمية والحضارية التى شاهدها فى البلاد الأوربية ، وفى فرنسا على الخصوص ، وتأثر كبيرا بتيارها .

والمعلوم أن السيد رفاعة كان قد سافر الى فرنسا ضمن ثانى بعثة علمية مصرية الى باريس ، وقد قضى بها خمس سنوات وكان خلال اقامته فيها يدون كل ما شهدته عيناه .

وبعد رجوعه الى بلاده كتب كتابه المعروف « تخليص الأبسريز فى تلخيص باريز » .

وقد خص العلامة الطهطاوى مكانا مرموقا للحديث عن المجامع العلمية الفرنسية ، والمكتبات وقصور الآثار . وكان ممن شهد الثورة على الملك شارل العاشر . وشهد الشعب الفرنسى الثائر .

وكان السيد الطهطاوى يريد أن يؤثر بكتابه على الجيل العربى الصاعد فى مصر لما احتواه هذا الكتاب من المشاهد المثيرة وقد نال السيد الطهطاوى ما أراد .

ولقد كان وهو يتزعم حركة الترجمة ونشر الثقافة والعلم ، يساهم مساهمة فعلية فى تحرير الصحف وتغذيتها بالمقالات الثقافية والعلمية والبحوث ومن هذه الجرائد صحيفة « الوقائع المصرية » و « مجلة روضة المدارس » التى كانت تهتم كثيرا بالمواضيع العلمية والأدبية والأبحاث .

ولقد استغل الطهطاوى كل معارفه فى تطوير تلك الجرائد على الطريقة العصرية الأوربية مستعملا فى ذلك ما اكتسبه من خبرة فى العاصمة الفرنسية أيام دراسته .

ولقد كان لتلك المجهودات التى بذلها فى ميادين القلم نتائج مرضية فقد دفع عجلة النهضة الى الأمام ولذلك أصبح يعتبر رائد النهضة الصحفية فى العالم العربى وأول عربى كتب عن باريس .

وقد وافته المنية عام ١٨٧٣ أى بعد القضاء على ثورة المقرانى فى الجزائر بسنتين .

احمد فارس الشدياق :

فى نفس الوقت وفى نفس التاريخ تقريبا كان نجم عربى آخر من اعلام الفكر يلمع فى سماء المشرق العربى ذلك هو السيد أحمد فارس الشدياق العشقوتى اللبنانى .

وقد ولد السيد أحمد فارس الشدياق فى لبنان وتعلم هناك وأكمل تعليمه فى القطر المصرى .

وفى مصر دخل الصحافة فشارك فى تحرير جريدة « الوقائع المصرية » .

ولقد زار السيد أحمد فارس الشدياق القارة الأوربية ، مثل ما فعل السيد رفاعة الطهطاوى فزار بعض أقطارها وانتهى به المطاف الى لندن عاصمة انجلترا وشارك هناك فى ترجمة التوراه الى اللغة العربية . وفى خلال تجواله هذا كان يتزود بمعرفة ما وصلت اليه أوروبا فى عالم التقدم .

وفى طريق العودة الى الشرق مر بتونس فأكرمه باى تونس وفيها اعتنق الاسلام وأطلق على نفسه اسم أحمد ، ثم التحق بالاستانة عاصمة الدولة العثمانية انذاك ، وبها أسس جريدة «الجوائب» التى ذكرت آنفا . كان ذلك عام ١٨٦٠ أى فى نفس الوقت الذى كان السيد سليمان بن على صحفيا فى باريس بجريدة « برجيس باريس » وتأتى هذه الجريدة عقب الرحلة الطويلة التى قادته الى البلاد الأوربية والتى جعلته يكتسب خبرة قيمة وتبحرا كبيرا فى مختلف العلوم واللغات بالاضافة الى تبحره فى العربية التى عرف فنونها واطلع على أسرارها الخفية « وقد أوتى

بيانا سهلا تلين له وجوه المقاصد مشرق الديباجة رصين البناء [1] » .

ونظرا لذلك فان جريدته هذه ـ الجوائب ـ قد بلغت مكانة كبيرة فى عالم الصحافة حينئذ وأحدث هو بمقالاته الرنانة صدى كبيرا يسمع فى القارات .

ولقد سبق ان قلنا بأن جريدة المبشر كانت تنقل منها المقالات الطوال . كما كانت تنقل عنها الصحف المصرية أو ترد عليها بالمثل :

بطرس البستانى :

كان هذا العلامة أحد أركان النهضة العربية وهو غنى عن التعريف اذ أن كتبه تمثله بيننا حتى الآن .

واذا كان قد كتب عشرات الكتب ونشر الأبحاث اللغوية وقام بالتعليم مدة طويلة من الزمن فانه لم يترك ميدان الصحافة جانبا بل أسس اربع جرائد شهرية لم نعرف بالضبط تاريخ اصدارها وعلى كل فان هذه الجرائد كانت تسمى على التوالى (نفير سوريا) و (الجنة) و (الجنينة) صال فيها وجال ونشر فيها الأبحاث العديدة القيمة فكانت تلك الصحف تلعب أدوارا فى دفع النهضة الى الأمام وبسرعة أكبر .

رزق الله حسون الحلبى :

واذا كانت طهطا قد أنجبت رفاعة الطهطاوى وولدت عشقوت أحمد فارس الشدياق فان مدينة حلب قد دفعت الى الوجود بنابغة آخر عام ١٧٨٥ وهو السيد رزق الله حسون الذى ولد فى

---

(١) راجع كتاب الاستاذ أديب مروة .

هذا التاريخ وتلقى تعليمه الابتدائى والعالى بين مدينتى حلب ولبنان ثم تحول الى تاجر مثل ما فعل السيد الكونت رشيد الدحداح قبله ثم أبت عليه نفسه الا أن يطلب المجد والعلا وأن يركب من أجلها المخاطر .

فينطلق هو الآخر فى رحلة طويلة مثل هؤلاء الاعلام الذين سبقوه الى أوربا . فزار العاصمة الفرنسية باريس ثم لندن بالجزيرة البريطانية ثم تنتهى به الرحلة الى مصر وينتهى به المطاف فى العاصمة العثمانية ــ الاستانة ــ لكى تؤتى الرحلة ثمارها . وفيها انشأ ــ سنة ١٨٥٤ ــ أول جريدة عربية أنشئت فى تركيا على الاطلاق هى جريدة (مرآة الأحوال) ونظرا لمعرفته الواسعة وطموحه الى المجد والعلا تحمل مسئوليات سياسية وادارية كبيرة وتقلب السيد رزق الله حسون فى مناصب جمة وتعرض الى اضطهاد وسجن ففر الى روسيا ثم الى لندن مرة أخرى لكن هذه المرة لا كرحالة بل كلاجىء سياسى .

وكان من الذين اتصلوا بالأمير عبد القادر الجزائرى بعد حوادث سوريا عام ١٨٦٠ ومدحه على خصاله النبيلة . وقدر لهذا النجم الصحفى العربى النبيل أن يموت فى المنفى بلندن عام ١٨٨٠ بعد أن عاش فيها قرابة العشرين سنة ولكنه لم يترك هذه السنين الطوال تذهب سدى بل ملاها بالتأليف والكتب العديدة المترجمة .

ولقد عاش حرا ولو كان ذلك فى المنفى بعيدا عن الوطن والأهل والديار .

السيد عبد الله النديم :

ــ كان السيد عبد الله النديم من الصحفيين الكبار فى مدينة الاسكندرية التى ولد فيها سنة ١٨٤٣ والتى فيها تعلم وتفقه .

ولقد تقلب تحت أطوار عديد فى حياته الأولى حتى صار صحفيا كبيرا ورائدا من رواد القلم الصحفى فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر فشارك مع جماعة فى تأسيس الصحف فى مدينة الاسكندرية دائما ومن بين هذه الصحف جريدتا «المحروسة» و « العصر الجديد » . هذا فى ميدان الصحافة أما فى السياسة فقد تتلمذ على السيد جمال الدين الأفغانى ثم اشترك فى الثورة العرابية وكان خطيب هذه الثورة وصحفيها (فى جريدة «الطائف») ولقد اختفى بعد فشل الثورة نحو عشر سنوات والسلطات تبحث عنه ؛ ثم أصدر بعد ظهوره صحيفة « الأستاذ » ولكنه لم يلبث ان نفى من مصر ولكن هذا النفى لم يقلل من نشاطه فى دفع عجلة النهضة مع روادها الأوائل فى البلاد العربية حينذاك .

ونختتم تعريجنا عن الشرق العربى ونحن عائدون الى الجزائر بذكر احد الرواد الكبار لنهضتنا الحديثة وهو العلامة الكبير السيد خليل الخورى .

خليل الخورى :

كان السيد خليل الخورى علامة متبحرا فى اللغة العربية وملما الماما كبيرا باللغتين التركية والفرنسية (١) .

أصدر فى عام ١٨٥٨ فى بيروت جريدة (حديقة الأخبار) وهو لا يتجاوز الثانية والعشرين من عمره اذ ولد عام ١٨٣٦ . وهو الشاعر والكاتب العربى الذى كان يتبادل الرسائل مع الشاعر الفرنسى الشهير لامرتين .

وقد ارتحل هو الآخر الى القارة الأوربية طلبا للمزيد من

---

(١) انظر نفس المرجع .

العلوم والمعرفة ، وهناك عاش عيشة المناضل المؤمن ببناء صرح النهضة العلمية والفكرية فى بلاد العرب .

وبعد سبع سنوات خلت من هـذا القرن وافته المنية وترك كتبا عديدة منشورة ومنظومة :

ولقـــد أردت ذكر هؤلاء الرواد الذين كانوا يهزون الشرق بصحفهم ومقـــالاتهم وكتبهم وتراجمهم ونداءتهم الى النهوض بالتطور والتقـدم فى بلاد عربيـةِ اسلامية حرة طليقة يحـكمها ويسيرها عرب مسلمون ـ فى وقت كانت فيه الجـزائر العـربية المسلمة تنـاضل لا من أجل وجودها وبقـائها ومقـاومة الدخيل فحسب ، بل ومن أجل التطور والتقدم والقضـاء على الجهل والتأخر . وكانت سـيوفها محطمة وأقلامها مكسرة ، ولو كانت الجزائر حرة طليقة مثل ما كانت البلاد العربية الاسـلامية لظهر فيها رجال القلم والعلم مثل ما ظهر فى الشرق من أمثال الطهطاوى وحسون والخورى والشدياق وعشرات غيرهم .

ومع هذا فانها لم تستكن ولم تستسلم بل حاولت القيـام بشيء ما ولو على صفحات جرائد فرنسية حتى كانت ثورة المقرانى وسقوط الامبراطورية على أثر حرب السبعين ، فوقع القضـاء نهائيا على ما تبقى من أقلام الجزائر .

وبعد أوروبا وبعد المشرق العربى ها نحن نصل الى الجزائر ونستعرض اقلامها التى كانت تعاصر رواد النهضة العربية من بعيد ومن وراء ستار من حديد . ويشمل هذا العرض باختصار مرحلة عشرين سنة من تاريخ الجزائر أى من ١٨٥٠ الى ١٨٧٠ وخاصـة مرحلة ١٨٦٠ ، وذلك لأن العشر السنوات الاولى (١٨٥٠ ـ ١٨٦٠)

شملها حديثنا السابق عن السيد سليمان بن الصيام (المليانى والسيد محمد السعيد على الشريف شيخزواية شلاطة ثم حديثنا فى الفصل الماضى عن السيد أحمد البدوى (العاصمى) وكذلك حديثنا فى بداية هذا الفصل عن السيد سليمان بن على الجزائرى فى (باريس) .

وهذا الترتيب رأيناه صالحا لتسلسل الزمن حتى لا يخرجنا الاستطراد عن الموضوع . ولو اننا قلنا فى مطلع الحديث باننا لن نتقيد بالتسلسل الزمنى بالنسبة للاشخاص المعنيين فى هذه الدراسة .

أما فى العشر السنوات الثانية فقد ظهرت جماعة من المثقفين الجزائريين وكانت ثقافتهم مزدوجة عربية وفرنسية وهم من خريجى المدارس العربية التى أعاد الفرنسيون فتحها عام ١٨٥٠ ، وكانت واحدة فى تلمسان وأخرى فى قسنطينة وثالثة فى المدية ثم نقلوها فيما بعد الى مدينة البلدية واستقر بها الحال فى آخر الأمر فى مبنى (الثعالبية) بالعاصمة . ومن هذه المدارس تخرج هذا الفوج من المثقفين الذين لعبوا دورا أساسيا فى النطاق الضيق الذى سمح لهم به الفرنسيون فنذكر منهم على الخصوص بعض الأساتذة الذين كانوا على اتصال بالصحافة والكتابة فيها . وكذلك بعض المترجمين الذين لعبوا دورا لا يستهان به فى هذا الفن بتغذيتهم الصحف بالمقالات المترجمة من الفرنسية ، ونذكر كذلك الصحفيين الذين لمعوا فى هذه الحقبة من تاريخ بلادنا . أما القضاة أو المترجمون بالجيش والعدالة والمعلمون الذين تخرجوا فى هذه المدارس ، وهم قلة ولم يهتموا بفن الصحافة ، فليس لهم مكان فى هذا الموضوع .

ما هو الجو الذى ظهرت فيه أقلام جزائرية ؟

بعد أن توج الامبراطور لوى نابليون على عرش فرنسا واستتب له الأمر قرر اطلاق سراح الأمير عبد القادر عام ١٨٥٢ : ثم استقبل أعيان الجزائر فى (كومبيان) أثناء الاحتفالات ويغلب على الظن انه وعدهم بزيارة الجزائر وبعد ذلك بثمان سنوات قرر أن يزور الجزائر هذا البلد الجميل (مستعمرة فرنسا الغنية) التى كانت تحسدها عليها كثير من الدول الأوربية ـ كان ذلك عام ١٨٦٠ فزار الجزائر وشاهد على العين أهلها ، وشاهد فى الوقت نفسه الجالية الأوربية التى كانت تتكالب على التهام ارزاق الجزائر بما فيها الأراضى والعمران . وحاول نابوليون الثالث أن ينقص من آلام سكان الجزائر فوعد بأنه سوف يجرى اصلاحات لفائدة الأهالى، ورجع الى فرنسا ومن هناك كتب عام ١٨٦٤ الى واليه فى الجزائر ليقول له اننى امبراطور الفرنسيين والعرب وفى الوقت نفسه ظهرت فكرة نابوليون بأنشاء مملكة عربية فى الجزائر وكان التطاحن قد اشتد بين المدنيين والعسكريين على السلطة ذلك التطاحن الذى كان قائما قبل ذلك التاريخ بسنوات .

رسالة نابوليون الى بيلسيى :

يستعرض نابونيون فى رسالته الى المارشال بيلسيى ما وصل اليه وضع الأهالى فى الجزائر من جراء سياسة الفرنسيين فيها . ويركز على نتيجة حجز الأراضى وضمها الى ادارة (الدومين) أو أعطائها الى (الكولون) المعمرين وعدم أخذ الغرامة عليها .. ثم أعادة بيع الأراضى لأهلها العرب ، مما حرم الدولة من مدخولات ضرائبها .. وبعد ما يشرح نتائج السياسة يقول :

« والآن قد أوجب علينا التقدم فى غير هذا (الطريق) و (أن) يتحقق العرب بأننا ما جئنا لاقليم الجزائر بقصد ظلم أو اخلا أملاكهم المراد هو نشر ما يجلب اليهم أنواع الخيرات العقلية

والبدنية ولذلك الزام الشرط الأول المستوجب لحرية وتوفير العبـادة بحفظ حقوقهم فكل من تعرض وادعى بقوله : لا حق للعرب وزعم أن السلطان الفارط قبلنا كان يملك البلاد كلها ونحن كذلك على أثره .. فأقول كيف بدولتى تتمسك بشروط عقيمة لتنزع البلاد من أربابها الأقدمين .

ويدعون ما كان عليه والى الأتراك من الحقوق الجائرة سيما فى أرض صارت الآن من رعية فرنسية .

فمن اعتمد على هذا الزعم فقد خرج عن دائرة الصواب ، ولو ملنا الى قولهم آنذاك أن ندفع عامة العرب الى الصحارى حتى يصيبهم ما أصاب أهل أمريكا الظهرة وهذا المجال لا يوافق ذوى الحنـائة .

تعالوا نسعى فيما يمكن من الترتيب لميل العرب الينا الذين هم طائفة موصوفة بالعقل والجودة والشجاعة والقريحة فى خدمة الأرض .. »

وبعد ما يقول فى رسالته : والآن فانى سلطان على العرب كما انى سلطان على الفرنسيين ينتقد القوانين التى صدرت من قبل ويلح على ملكية الأرض للجزائريين لكى يقع الاختلاط بين العرب والافرنج فيميلوا الى سياستنا الاحسـانية أفضل من أن يجلبوا بالسيف والصنف (١) .

هذه بعض المقتطفات أخذتها من سالة نابوليون الى المارشال بيلسى التى كانت ـ حسب اعتقادى ـ عاملا رئيسيا من العوامل التى دفعت أقلام الجزائريين الى التحرك .

---

(١) انظر نص الرسالة فى جريدة « المبشر » التى نشرتهـا فى ملحق خاص بالعدد ٤٢٠ الصادر يوم ٢٢ ابريل ١٨٦٤ . ورقم المجموعة بالمكتبـة الوطنية : ١٥٨٩٩٢ .

فى هـذا الظرف ظهرت نخبة من المثقفين الجزائريين داعبها لسلطات نابوليون ، ونابوليون أعلن عطفه على سكان الجزائر اذ وضعهم فى نفس المستوى مع الاوربيين بقوله انه امبراطور الفرنسيين والعرب . يضاف الى هذا العطف فكرة انشاء مملكة عربية فى الجزائر التى نسبت اليه ثم يضاف الى هذين العاملين قرار منع تجريد الأهالى من أراضيهم لاعطائها الى المعمرين الأوربيين الذين كانوا يلحون على طرد العنصر الجزائرى الى الجنوب وابعاده الى الصحراء .

اذن فان هذه العوامل الثلاثة بدت للاوربيين وكأنها سد منيع بينهم وبين ابعاد السكان الجزائريين عن اراضيهم الفلاحية الخصبة وبالتالى فان هذه العوامل جعلت فى نظرهم السلطة العسكرية فى الجزائر وكأنها حامية للعرب ، فكان سخط الأوربيين (بما فيهم الادارة والمعمرون) كبيرا .

فى هذا الوقت شعر المدنيون الاوربيون بان العسكريين يمتثلون الامل فى ان تغتنم فرصة هـذا التطاحن وان تبرز فى الميدان علها تصل فى يوم ما الى مكان السلطة فى ظل مملكة عربية تقيمها فرنسا بالجزائر وقد اشرت اليها فى الحديث عن السيد أحمد البدوى ، وقلت أنه لم يظهر اسمه على صـفحات الجريدة الا بعـد ان زار نابوليون الثالث الجزائر للمرة الثانية عام ١٨٦٥ رغم أن السـيد البدوى هذا كان يشتغل بالصـحافة منذ عشر سـنوات قبل أن يزور نابوليون الجزائر .

بعد زيارة نابوليون للجزائر فى هـذا الظرف الذى كثر فيه التطاحن بين العسكريين والمدنيين ، برزت اسماء البدوى ، وأحمد

ابن لفكون ، وبن الســادات ، وحسن بن بريهمات ، ومحمد بن الشيخ على وعلى بن عمر .. وغيرهم .

وفيما يلى اقدم نبذة قصــيرة من نشــاطات هؤلاء ، وبعض النماذج لكتاباتهم الصحفية وترجماتهم خلال العشر سنوات التى تمتد من ١٨٦٠ الى ١٨٧٠ بل الى اندلاع ثورة المقرانى عام ١٨٧١.



الفصل الخامس

علي بن عمر

تاريخ النباتات بأفريقيا
التجارة الجزائرية
أحوال المجتمع
الشمس ثابتة

احمد بن لفكون

دوره في النهضة الصحفية

على بن عمر :

●● السيد على بن عمر هو كاتب مقتدر لم نتمكن من معرفة تاريخ ميلاده ولا مكان ولادته وكذلك من أى المدارس هو متخرج .

ففى صفحات جريدة ((المبشر)) نجده كاتبا مقتدرا ملما باللغة الفرنسية الماما كبيرا بحيث كان يكتب باللغتين ولم يكن السيد على ابن عمر مترجما مقتدرا فحسب بل كاتبا صحفيا مقتدرا يتصرف فى قلمه كما يشاء . وفوق هذه الجريدة ـ المبشر ـ وبين أعمدتها رأيناه يترجم ويكتب فى الأخبار الخارجية ، وفى الشئون الاجتماعية والمحاكم ، وفى الاقتصاد والتجارة ، ويتعشق التاريخ فيكتب بل يترجم الكتب التاريخية الفرنسية الى اللغة العربية ويسمح لنفسه فيتصرف بحرية فى اضافة اشياء لم تكن فى الاصل . وفى ترجمته وكتابته يحبب للناس ما يكتب عنه .

ولنبدأ باعطاء نموذج محلل لبعض ما ترجم فى التاريخ قبل أن نقدم نماذج أخرى عن كتاباته فى الميادين الأخرى .

ظهرت كتاباته المترجمة أول ما ظهرت فى موضوع ترجمه هو والسيد أحمد البدوى معا هى قصة (غونز اليف) القرطبى ثم ترجم وحده حلقات أخرى من هذه القصة التى سبق لنا أن تحدثنا عنها عندما تحدثنا عن السيد البدوى .

تاريخ النباتات بافريقيا :

ثم ترجم السيد على بن عمر كتابا عن تاريخ النباتات فى أفريقيا للمسيو«Mans» نقلا عن المجلة الجزائرية الناطقة بالفرنسية Revue Algerienne ونشره فى سلسلة من المقالات بعنوان تاريخ افريقيا فيما يتعلق بالنباتات .

ترجم السيد على بن عمر مقتطفات من هـذا الكتاب فى بعض حلقات .

ومن قراءة هذه الحلقات القليلة المقتطفة يظهر لنا أن السيد على بن عمر كان يختار الفصول التى تجد صدى وطنيا فى نفسه فهو مثلا يأخذ من فصول الكتاب تلك التى تؤكد خصوبة أفريقيا فى العصور القديمة ، عصور ما قبل التاريخ وبعده .

انظر اليه وهو يترجم هذا النص فيقول :

(اعلم أن أرض افريقيا فى سالف الدهر كانت مشهورة بالنظارة والطراوة وكثرة نتائجها الفلاحية واستمرت زاهرة بين القرون الى آخر دولة اليونانيين فيها حتى كان يضرب المثل بخصبها ولم يوجد لها نظير فى تلك الاعصر والذى أظهرها من بين سائر الاقاليم وغلبت فى شهرتها هو الزروع من قمح وشعير .

(فأتفق جميع المؤرخين القدماء على مدح الارض الافريقية فلو جمع ما وصفوها لاستغرب ما اطنبوه فى امتداحهم اياها) .

(وقيل أن أول من زرع البر فيها هم أهل صور (سور الغزلان) لكن لا نتعرض فى ذلك لمن سبق باستعماله البر فى هـذا البلد الكريم) .

ثم بعد هذا المدخل يصف ويستشهد بأقوال بعض العلماء ، فى الجغرافية والتاريخ فيذكر منهم أحد علماء الفرس ، وكان عالما جغرافيا فى عهد الملك الفارسى دارى قبل الهجرة بأحد عشر قرنا ، وكيف وصف هـذا العالم الاقطار الموجودة قرب مصر ، وهى طرابلس وتونس والجزائر ..

ويخلص من هذا الى قوله : « ثم جاء بعده هيرودوت الملقب بأبى التاريخ فخصص فى مدحه بقعة من بقاع أفريقية قائلا : أن

ترابها مكحوحل تتخلله المياه بسواقى وسمى البرار الداخلية فى جوف أفريقيــة أرض الفلاحين وقال ارسطوطاليس الحكيــم أن القرطاجنيين . نهوا أهـــل سردانية عن الزراعة فى أراضــيهم والا قاتلوهم . وقال آخر أن البر الذى زرع فى بلاد اليونان كان جلبه من البلاد الافريقية ولما عرف الروم قــدر تلك الحبــوب استحسنوها وشيدوا هيكلا عظيما (لها) فرحا بحصول هـــذه البركة فى أرضهم وتذكارا لمن يأتى بعدهم .

ولا يقف السيد على بن عمر عند هذا الحد من ذكر ماضى بلاده فقط بل يذهب الى ملوك الروم وما كانوا يأخذون من حبوب فى كل سنة من كل مدينة وناحية فيذكر الحــرب التى وقعت بين ملك الروم وملك الشام وكيف قدمت افريقيا الزاد اللازم ويذكر قيصر عندما غزا أفريقيا التى أتى اليها بلا زاد لكونه عارف بان الخــير فيها موجــود .

وان ملوك سيرته (قســنطينة) كانوا يقدمون الهــدايا لأهل صقلية من حبوب البر والشــعير القسنطينى . ثم يقول : « ان احد ولاة قيصر بعث اليه بجرزة من سنبل على ساق واحد تحتوى على ٤٠٠ سنبلة كلها نبتت من برة واحدة وبعث والى آخر لولى عهد قيصر بجوزة أخرى فيها ٣٦٠ سنبلة .

ولقد شهدنا فى زمننا هذا سنة ١٨٤٩ جرزة قائمة على ساق واحد فيها ١٨٠ سنبلة وقد ارسلت الى باريس ووضعت فى محل العرض العمومى ثم ان مرادنا بذكر هذه الفضائل لم يكن منا اظهارا لأراضــيها الكريمة على انها فى عادتها تنتج ما ذكر وانمــا اتينا به تصحيحا وبرهانا لخصبها وجودها » ..

لقد كانت ترجمته او اسلوبه فى الترجمة سليما .. ولقد كان يأخذ حرية أكثر فى التصرف بالزيادة والنقصان وعدم الحفاظ على

النص . كان يتصرف فى الكلمات مع الحفاظ على المعنى والجوهر كما كان يضيف اشياء كثيرة من عنده ..

هذا من حيث أسلوبه فى الترجمة وقد شهدنا نموذجا حيا، منها . أما أسلوبه فى الكتابة فقد كان أسلوبا جميلا فى وقت كان فن الكتابة يطغى عليه التزويق والتملق .. والخروج عن الموضوع تماما ، فى كثير من الاحيان . فالى جانب الترجمة عالج القضايا الاجتماعية بأسلوب قصصى دون أن يذكر الأسماء ولا الأماكن التى وقعت فيها الأحداث ، مثلا يصف قصة حصان سرق من صاحبه وبعد أن يئس من العثور عليه ذهب الى السوق ليشترى غيره فاذا به يجده بين الخيول ..

ولما خاف من أن لا يصدقه الناس بأن الحصان حصانه استعمل حيلة (ليثبت بها صدقه ونادى فى الناس بأن الحصان حصانه سرق منه منذ أيام فبادرة السارق قائلا كذبت أن الحصان حصانى منذ سنة) فعند ذلك رمى صاحب الجواد جناح برنوسه على رأس الحصان وقال له أن كنت صادقا فى دعواك ملكيته فلا يخفى عليك شىء من عيوبه فعرفنى اذن من أى عين هو العور ، فلما سمع السارق مقالته بهت وتغير لونه الا انه التزم برد الجواب حينا ، فقال بالتخمين اتريد ان تجهلنى فى حصانى انه اعور من اليسرى ، فقال الآخر ويحك اخطأت ليس العيب فى اليسرى فقال السارق نعم نعم سبقنى لسانى وكان قصدى أن أقول فى اليمنى بلى بلى هو من اليمنى .

فكشف هذا اللبيب عن رأس الجواد قائلا قبحك الله ياخداع فما أنت الا كاذب وسارق ايها الحاضرون انظروا الى حصانى الذى لا هو أعور من اليسرى ولا من اليمنى ..

فقبض على السارق وأحيل الى العدالة .

أنه أسلوب رقيق حلو مسترسل استعمله السيد على بن عمر وكان يوقع مقالاته المكتوبة « على بن عمر » والمترجمة « عربه على بن عمر » وفى بعض الحلقات المترجمة كان يضع اسمه فقط هكذا « على بن عمر » .

ولقد ترجم سلاسل عدة من كتب عديدة مثل احتكاك الأوربيين بالعرب فى أفريقيا فترجم كتابا فى هذا الموضوع فى حلقات بعنوان :

« المعاشرة والالفة بين النصارى والمسلمين فى الاجيال المتوسطة» يستشهد فيها ببعض الكتابات لابن خلدون . وكتب سلسلة من المقالات المترجمة عن التجارة التى كانت منتشرة بين الافرنج وأهالى افريقيا فى القرون الوسطى ولم يذكر اسم الكتاب المترجم ولا اسم مؤلفه ثم كتب سلسلة أخرى بعنوان « مخالطة الدول الاوربية مع عرب افريقية فى الاجيال المتوسطة » .

ثم يستعرض فى سلسلة أخرى مترجمة لم يذكر اسم صاحب الكتاب المترجمة عنه علاقات البابوات مع المسلمين فى شمال افريقيا وكانت بعنوان « مخالطة البابوات مع عرب افريقية فى الاجيال المتوسطة » .

« التجارة الجزائرية » :

وبعد هذا العرض الخاطف لترجمته وأسلوبه فى الكتابة الاجتماعية . نستعرض مقالا آخر فى الاقتصاد يكتبه عن « التجارة الجزائرية » فيقول تحت العنوان السابق :

« فاذا نظرنا الى البضائع التى وردت لولاية الجزائر فى ظرف الثلاثة أشهر الأولى لسنة ١٨٦٩ من بر فرنسا وغيرها وجدناها فى حال يرضى الخاطر لوجود التزايد من جانب ابراز البرور المستعمرة

مصنوعات فرنسا والنقصان من جانب الحبوب فهذا مما ينبىء على ان ولاية الجزائر صارت اليوم غير محتاجة الى المحصولات الأوربية وانها اكتفت بما فى باطنها من النتائج للانتعاش بها » .

ثم يذهب الى اعطاء التفصيلات عن المواد التى تدخل والتى وقع النقص في استيرادها ويقدم أرقاما للسمك المملح الذى صدرته الجزائر الى ايطاليا واسبانيا التى بقيت فى أقصى الحاجة الى الجزائر لتزودها بهذه المواد . فيتحدث عن القطن والسمك والدقيق والدخان والحلفة ويقارن نتائج السنة بنتائج السنة التى سبقتها ويذكر النقص مثل الجلود والصوف . ويختتم مقاله قائلا: « اما النقص الذى لحق الشمع والشعير والكتان ومعدن النحاس فلا عبرة به » .

أن السيد على بن عمر ليعتبر بحق الصحفى المتهن للصحافة بما فى الكلمة من معنى .

واذا تحدث على بن عمر كما قلنا عن مختلف الأشياء فأنظر اليه ثانية وهو يتحدث عن الصادرات والواردات الى الجزائر ونشاط التجارة فى الثلاثة أشهر الأولى من النصف الثانى لسنة ١٨٦٩ فيقول : « ان ما تحقق من احصاء المراكب الواردة الى مراسينا الجزائرية فى ظرف الثلاثة اشهر الثالثة لسنة ١٨٦٩ هو دخول ٥٤٠ مركبا فرنسيا مجموعها أى حمولتها ٣٤١٩١ كيلو » .

« فاذا قابلنا الثلاثة أشهر المذكورة بنظيرتها من سنة ١٨٦٨ وجدنا لها زيادة ٦٥ مركبا فرنسيا ونقص ١٠٤ مركبا أجنبيا وظهر أن هذا النقص ينشأ من كثرة الحبوب التى كان اتى بها من البحر الأسود فى السنة الماضية لما ظن من انعدام الغلل فى الولاية والحمد لله الذى خيب هذا الظن ولم يحوجنا الى اقتياتنا بالعسر » ..

ثم يتحدث السيد على بن عمر عن الصادرات الجزائرية فى تلك السنة ويقارنها بالسنة الماضية فيقول :

« اما المراكب الخـارجة منها ـ أى من الجزائر ـ فى المـدة المذكورة فانها نقصت عن سنة ١٨٦٨ بخمسة وستين مركبا ما بين الفرنسية والاجنبية » ..

وبعد ذلك ينتقل الى تقديم احصائيات عن التبادل التجـارى مع تونس والمغرب فيعطينا هذا الصحفى المطلع على أحوال البلاد التجارية والاقتصادية أرقاما مضبوطة لتلك العمليات بين أقطـار المغـرب فيقول :

« واما القوافل الآتية من الايالة التونسية وكذا المغـربية فى الثلاثة أشهر المشار اليها (فهى كالآتى) دخل منها (أى من القوافل) الى « سوق اهراس » (١) خمســة مشتملة على ٢٢٨ دابة قيمة بضاعتها ٢٨٣٠١٦ فرنكا . ودخل الى « للة مغنية » (١) ٣٠ لهـا ٣٤٥ دابة قيمة متجرها ١٤١٥٨٠ فرنكا . والى « جامع الغزوات » خمس فيها ٢٦ دابة تقويم تجارتها ٦٩١٦٠ فرنكا » .

لاحظ احترام هذا الصحفى للارقام فيقدمها مفصلة كخبير فى الحسابات ولا يقنع باعطاء أرقام حجم عمليات التجارة فى هـــذه السنة بل يعطى قراءه حينذاك ويعطينا نحن اليوم معهم أوصـاف تلك البضاعة وانواعها فتزيد كتابته فائدة بل دقة وتفصيلا للحالة التجارية فتجعل التاجر أيامذاك يقرأ لكل شىء حسابا وفى وصف تلك البضاعة يقول :

« اما أصناف تجارتها فهى الصوف ، والزيت ، والمصنوعات الجلدية ، والضأن ، والماعز ، والجلود ، والتمر ، والســينوج ،

---

(١) أسماء مدن جزائرية .

واقمشة من قطن ساذج ومصبوغ ، وقطن مغزول ، وافرشة ، وبرانس ، واقمشة من كل صنف وحصر ، وضفائر الحصر ، وحصر حلفة ، وحياك وملح وزرابى ، وحنة واوانى البيوت وغير ذلك » .

وكتب السيد على بن عمر فى الأخبار الخارجية ، مثل ما كتب فى الميادين الأخرى ، فقد عثرت على مقال كتبه عن مصر مفاده أن قناصل الدول قد اجتمعوا فى مصر واتفقوا مع خديويها على قناة السويس لكى تبقى مفتوحة فى حالة الحرب .

وتحدث عن الاصلاحات التى كان الخديوى يحاول القيام بها فكتب فى نفس الخبر ان الخديوى يجتهد من أجل تبديل الاحوال القديمة ليحل محلها المستحسنات الأوربية الحديثة .

ان قلم السيد على بن عمر كان سيالا وكان صاحبه مقتدرا بحيث يكتب فى كل شىء ففى العدد ٦٧٩ من جريدة « المبشر » لثلاثين ديسمبر ١٨٦٩ نجده يكتب فى » التجارة » وفى « الأخبار الخارجية » وفى « شئون المحاكم » وترجم من كتاب المسيو ماص لانترى « تاريخ الاحتكاك الفرنسى العربى فى أفريقيا » وترجم فى علم النجوم ولقد كاد فى هذا العدد أن يكتب صفحاته الثمانية وحده . وكانت هذه المقالات موقعة — على بن عمر — .

احوال المجتمع :

والسيد على بن عمر بالاضافة الى كل ما ذكرنا فانه كان صحفيا مهتما بالاحوال المختلفة فى المجتمع فها نحن نجده يكتب فى جريدة « المبشر » عدد ٦٧٩ فى ٣٠ ديسمبر ١٨٦٩ خبرا اجتماعيا عن حدث وقع بمدينة مرسى الكبير فى شهر اغسطس ، ومفاده ، ان امرأة عاهرة تدعى مريم تحيلت على بنت أختها أمية عمرها ١٢ سنة وباعتها الى رجال بحارة مغاربة بواسطة خليلها ويدعى

عمر بن يعقوب فحملها هؤلاء فى مركبة لكن ربان المركبة تدخل وأنزلها فى مدينة وهران .

ويكتب السيد على بن عمر الخبر بأسلوب مفصل من أوله الى أن حكمت المحكمة على المجرمين بـ ٨ سنوات أشغالا شاقة للرجل وخمس سنوات للمرأة .

وفى نفس العدد نجد السيد على بن عمر يكتب مقالا مطولا عن اختلاط الفرنسيين بالعرب فى افريقيا فى الاجيال المتوسطة فيقول:

سأتم قولنا ان مراكب الايالات الجنوبية من المملكة الفرنسية ثبت لها ترداد فى السواحل الأفريقية فلنذكر من ذلك ما انفق لمدينة مرسيليا فى سنة ٥١٠ هجرية فأنها حصلت على عقد معاهدة سنية مع سلطان المغرب فيما يرجع الى التجارة المرضية .

ثم ينتقل من الحديث عن مدينة مرسيليا وسفنها واتصالها بالشواطىء الافريقية فيذكر من أهم المدن التى اشتهرت بالتجارة والتى كانت همزة الوصل بين العرب والأوربيين وبين افريقيا واوروبا تونس وبجاية ووهران وسبتة على الجانب الافريقى ومرسيليا ومونيلى وتاريون على الجانب الأوربى وكيف كانت توجد مراكز فى هده المدن لكلا الطرفين وهكذا نجده يكتب فى التاريخ وتاريخ العلاقات الأوروبية وخاصة الايطاليين .

الشمس ثابتة :

فاذا كتب السيد على بن عمر فى التاريخ « حلقات البابوات مع عرب أفريقيا » وكتب فى الاجتماع « الحصان المسروق » وكتب فى الاقتصاد « صادرات وواردات الجزائر » وترجم .. فانه كتب فى الفلك والنجوم السيارة . ففى مقال طويل بعنوان « الشمس ثابتة : قال « وهذا الموضوع الذى أعدم من أجله علماء اجلاء وسال حبر كبير من أجل اثباته .. » كتب بل الخص عن كتاب ..

استقرار الشمس ودوران الكواكب وكروية الأرض، فبعد أن يشرح اعتقاد البشر منذ القدم بأن الأرض هى محور النجوم والشمس وان كل الكواكب تدور حولها وهى ثابتة (أى الارض) وكان هذا يبدو طبيعيا بالنسبة لهم حيث يرون الشمس كل يوم تطل من مشرق الارض وتغيب فى غربها ويشاهدون النجوم ليلا تسير كذلك من المشرق الى المغرب ، بعد هذا يقدم الأرقام ليثبت بها حجم الارض وحجم الشمس وبعد الشمس عن الارض فيقول : « أن جرم الشمس أكبر من الارض بمليون. وأربعمائة مرة وبعدها عن الارض بمائة وثلاثة وخمسين مليون كلم » .

ويقدم التقديرات للمسافة التى تقطعها فى اليوم الواحد لو كانت الشمس هى التى تدور حول الارض . ثم يغلط هذا الاعتقاد منذ الازل ويقول بأن الشمس هى الثابتة والكواكب تدور حولها .

ويقدم البرهان بمراكب السفينة أو العربة اذ يشاهد الاشجار والصخور تسير الى الوراء على الشواطىء أو على حافة الطريق وكأنه هو والسفينة أو العربة التى يركبها حابسة وقارة لا تتحرك ومع ذلك فلا أحد يشك فى تحرك السفينة أو العربة وان الطبيعة جامدة ساكنة بأشجارها وصخورها .

« وهكذا تبدو لنا نحن ساكنى الكرة الأرضية باننا قارين فوق سفينة الارض وان الشمس هى تدور حولنا » . .

ثم يستغرب من هذه الأمور التى تحير العقول فيقول :

« أفليس اعتبار هذا السير مما يحير العقل ويرهب النفس ؟ ثم يستعمل الاقناع الدينى فى قبول هذه النظرية التى تثبت عظمة الاله العلى القدير فيقول :

« فلما كان الأمر هكذا ووجدنا طريقة هينة توصلنا الى ادراك حقائق العجائب التى تظهر لنا .

ألم يكن الواجب علينـــا أن نتمسك بهـــا (أى الحقــائق) ونستوثق منهــا لاسيما اذا كانت هذه السهولة دليلا على عظمــة الرب جل وعلا ؟

أو ليس العظيم هو فى نفسه (الاله) الذى نتجت منه هــذه الأمور الجليــلة ؟

بعد هذه الشروح يقول عن الأرض واصفا مكانها :

« واعلم ان الارض هى على شكل كرة تدور على نفسها أمام شمس ونجوم ثوابت دورانا من المغرب الى المشرق فيستبان منــه ان النجــوم متحركة من المشرق الى المغرب كما تظهر الأشجــار والصخور سائرة بعكس ســير المركب وذلك يتم فى كل ٢٤ ساعة وهو سبب تكوين الأيام والليالى .

ومن غير الدورات المتصفة بها الأرض فلهــا حركة أخرى وهى انتقالهــا دائرة على الشمس وهذا الانتقــال تستكمله الأرض فى مدة ســـنة .

ومما هو عليه من السرعة فلا نحس به كما لا نشعر بدورانهــا على نفسها . والحالة أن هذا الاسراع لا يمكن أن تمثله بما عندنا لأن الكرة الأرضية تقطع فى مدة سنة ستمائة وثمانية عشر مليون كيلو متر التى ذكرنا (أن) الشمس تسيرها فى أربع وعشرين ساعة لو كانت هى التى تدور فى الحقيقة .

« وبتجزئة (١٨٫٠٠٠٫٠٠٠) كيلو متر على أيام السنة التى هى ٣٦٥ يوما تعين لنا ان الأرض تســير بنحو ١٦٠٠ كيلو متر فى كل دقيقة وحينئذ أن ما ظنناه من كوننا غير متحركين فهو غرور . بل نحن فى الحقيقة فى حركة سريعة لا قدرة لنا على تحملهــا لو كنا نحس بها .

واعلم أن انتقـــال الأرض دائرة على الشـمس هو السبب فى ايجاد الفصول واختلاف الليل والنهار » .

وفى مقال آخر يستعرض حركة النجوم ويقدم مسافات أبعادها بالكيلو مترات ثم يصف سيرانها وأبعادها عن الشمس فيقول :

« ان الاجرام المذكورة كلها من نجوم سيارة وثوابت وتوابع ، وذوى الذنب مرتبطة مع بعضها بغـاية الاحكام والتوافق فأنهـــا مطاوعة لقوة تجذبها دائرة على الشمس .

والمظنون أن سائر النجوم الثابتة كل واحد منها شمس تدور حولها متفاوتة العـــدد .

وقد انتهى عدد النجوم المرئية لنا الى ما ينيف على ٧٥ مليونا ولا شك أن هذا العدد البليغ هو قليل بالنســبة لما أحتجب عنـا بغيم البعد فما العالم اذا كانت كل نجمة ثابتة شمســـا ؟ واعجز العقل عن ادراك جميع ذلك ولكن مداومة النفكير فى هذه العظـائم هى التى ادخلت فى قلوبنا استعظام الرب الجليل الذى أوجـد كل شىء بكثرة ورتبه ترتيبا وأتمه تحكيما » .

هذا هو السيد على بن عمر الذى عرفناه من تراجمه فى مقالاته العديدة وانه من المعتقد أن هذا الصحفى الجزائرى كان يتشـابه مع السيد احمد البدوى فى وطنيته فاذا أعلن عنها الأول فان هذا لم يذكر شيئا علانية وكذلك لم يمدح الفرنسيين يوما ولم يمجدهم فى كتابات مثل ما فعل بن الصيام وكذلك بن على الشريف .

وان نشــاطه الصحفى كان كله مقتصرا على خدمة المعرفة أو الأخبار البحتة فلم يخدم قلمه قط الوجود الفرنسى وحتى ما كان يترجم من المواضيع كانت تخـدم فائدة الجزائر بذكر ماضيهـــا المجيد فهو يقول :

« قيل ان أول من زرع البر فيها ــ الجزائر ــ هم أهل سور ــ سور الغزلان لكن لا نتعرض لذكر من سبق باستعمال البر فى هذا البلد الكريم » .

وفى خلال مطالعتى لكل ما كتبه هذا الصحفى لم أعثر ولم تعترضنى كلمة ولا جملة تشتم منها رائحة المدح للفرنسيين بل ان كل ما شهدته من كتابته أو تراجمه كان يدخل السرور على قلبى والافتخار به . هو على بن عمر .

السيد أحمد بن لفكون :

بماذا نترجم للسيد احمد بن لفكون ، وقد تجنس بالجنسية الفرنسية مبكرا وشعبه وبنو جلدته ما يزالون يخوضون غمار المعركة بينهم وبين الفرنسيين ؟

ولد السيد أحمد بن لفكون يوم ١٢ فبراير ١٨٢٩ بمدينة قسنطينة فى أسرة كان كبيرها شيخ الاسلام فى قسنطينة ، وحسب ما تقول كتب التاريخ الفرنسية ان بن لفكون ، شيخ الاسلام ، قد طلب من الباى أحمد باى قسنطينة التفاوض مع الغزاة والسماح لهم باحتلال المدينة أو بكلمة أوضح : الاستسلام .

زاول السيد أحمد تعليمه الابتدائى بالمدينة وكذلك التعليم العالى حيث أنضم الى المدرسة التى أعاد الفرنسيون فتحها ــ وكانت مزدوجة اللغة ــ حتى تخرج منها .

وبعد تخرجه من تلك المدرسة التحق بالجيش الفرنسى كمترجم عام ١٨٥٠ (١) . وقد بلغ من العمر حوالى ٢٢ سنة واستمر السيد أحمد بن لفكون مترجما « بجيش أفريقيا » من هذا التاريخ الى عام ١٨٧٣ .

---

(١) انظر (مترجمو جيش افريقيا) لشارل فيرود عام ١٨٧٨ .

ويحتمل أن يكون السيد لفكون تجنس بالجنسية الفرنسية عندما دخل فى خدمة الجيش الفرنسى ولم يحدثنا شارل فيرو ، الذى ترجم له ، عن تاريخ تجنسه . ونظرا لتجنسه المبكر هذا يحتمل أن يكون أول جزائرى تجنس بالجنسية الفرنسية اذ لم نعثر حتى الآن على جزائرى متجنس وحتى السيد محمد السعيد ابن على الشريف بعواطفه نحو الفرنسيين والذى قيل « انه الجزائرى الأكبر فرنسة » لم يتجنس بالجنسية الفرنسية .

ماذا كان دوره فى النهضة الصحفية :

كان السيد أحمد بن لفكون ، بالاضافة الى عمله كمترجم بالجيش الاستعمارى يقوم بترجمة بعض الكتب والقصص لجريدة « المبشر » العربية ، وطبعا فان تلك المواد المترجمة كانت فى أغلبها تتماشى ومصلحة الفرنسيين فباستثناء قصة « أبو عبد الله بن سراج الأندلسى » وتاريخ دولة العرب بافريقيا ـ نراه يترجم قصة البطلة الفرنسية جان دارك فى حلقات متعددة وهى وان كانت حقيقة واقعية فان ترجمتها لا تخلو من التوجيه النفسى البسيكولوجى فى خدمة فرنسا .

فقد عرب سلسلة من المقالات عن أعمال البطلة الفرنسية جان دارك ، وذلك تحت عنوان « التاريخ المتدارك فى أخبار جان دارك » ، استعرض فيها كيف تقدمت جان دارك الى والى الملك بناحيتها ثم الى الملك زاعمة أنها ستكون سبب النجاة لعرش فرنسا من الضياع اذا امتثلوا لما تقول ... ثم يستعرض أطوار حياتها مع الفرنسيين والانجليز ومحاكمتها من طرف القضاة ورجال الدين وكيف أحرقت بالنار .

ويختتم قوله : « تمت الحكاية على يد مترجمها من الفرنسية الى العربية احمد بن لفكون الترجمان بالجيش الافريقي بتـاريخ ٢٠ مارس ١٨٦٦ . وقد نشر هذه الترجمة فى ست حلقات أما فى خصوص قصة « أبو عبد الله بن السراج » فيعربها فى حلقات أيضا استغرقت ثلاثة أشهر : مارس أبريل ومايو ١٨٦٤ (١) .

وفعل كذلك عندما ترجم تاريخ افريقيا والمغرب قبل الاسلام ونشرها فى جريدة « المبشر » فى حلقات من العـــدد ٦٢٨ الى ٦٣٢ لسنة ١٨٦٦ .

ولم يذكر السيد أحمد بن لفكون أسماء الكتب التى نقل عنها ولا أسماء مؤلفيهـــا .

وكان تارة يترك الموضوع بلا امضاء وأخرى يضع اسمه تحت الموضوع ـ أحمد بن لفكون . وقد اهتم السيد احمـــد بن لفكون بالترجمة أكثر من اهتمـــــامه بالكتابة بل اننى لم أعثر له ولو على مقال واحـــد حرره ، وكل ما عثرت عنـــــه ، هو مترجم من كتب وضعت أساسا بالفرنسية .

---

(١) بالنسبة لموضوع ابو عبد الله بن السراج الاندلسى انظر سلسلة (جريدة المبشر) لعام ١٨٦٤ من عدد ٤٢٠ الى ٤٢٧ .

الفصل السادس

سليمان بن على الحرائرى التونسى

معرض باريس

عرض البضائع فى باريس

تعليق وايضاح

حياة سليمان الحرائرى التونسى

جريدة البرجيس

مؤلفات الحرائرى

وفاة الحرائرى

شكر واعتذار

السيد سليمان بن على الحرائرى التونسى (١) :

●● استعمل أسلوب التعليق على الأحداث الخارجية :

فبعد الحـــديث عن السيد على بن عمر الصحفى المقتـــدر والسيد أحمد بن لفكون المترجم البارع ، نأتى الى الحـــديث عن السيد ســـليمان الحرائرى الذى استعمل أســلوب التعليق على الأحداث الخارجية واظهار قيمتها للمواطنين والقراء .

بدأ السيد ســـليمان الحرائرى كتاباته ، أو بالأحرى ظهرت مقالاته لأول مرة فى جريدة « المبشر » الجزائرية الجريدة الوحيدة الموجودة حينذاك فى البلاد ، فى عددها ٥٣٦ شهر أبريل (نيسان) عام ١٨٦٧ .

فكان مقاله الأول فى حركة الجو وأسباب منشــأ الرياح وكان بعنوان « فى سبب حركة ومنشأ الرياح وقياس سيرها وسموتها » وكان مقالا طويلا جدا . وفى هذا المقـال الطويل الذى احتل ثلاثة أعمدة كاملة ــ وهى أعمدة تغطى صفحة بأكملها ــ شرح أســباب تكوين الرياح الحارة منها والبـــاردة وكيف تنتقل من منطقـــة الى أخـــرى .

فيأتى استعراضه مثل استعراض أســتاذ جامعى وهو يشرح فى طبقات الجو والمناخ ..

---

(١) سيطالع القارىء فى الصفحات اللاحقة (١١٥) بأن السيد/سليمان من مواليد تونس وفقا للمعلومات التى قدمهـــا الاســتاذ أبو القاسم محمــد كرو تحت عنوان : تعليق وايضاح . كما سيجد القارىء (صفحة ١٢١) شـــكرى واعتذارى للاستاذ كرو الذى صحح معلوماتى ، ورغبتنا فى الحديث عن السيد/ سليمان الجزائرى هو لتأكيـــد دوره فى الكتـــابة الصحفية فى الجزائر مع رواد الصحافة الجزائرية .

ثم ينتقل السيد سليمان الحرائرى فيقدم مقارنة لقوة هبوب الرياح فى باريس مثلا وهبوبها فى لندن وفى البـــلاد الافريقيــة ، والسودان خاصـــة .

ثم يذكر أسماء الرياح قديما وحديثا عند البحـــارة .. وفى ختام الموضوع يعد قراءه بالكتـــابة فى الأعداد القـــادمة اذ إن لحديثه بقيـــة .

ولكن فى الأعداد التى تلت لم تظهر تلك البقيـــة ولعل ضيق المكان على أعمدة الجريدة وتوفير المادة جعلتها تختـــار الأهم على المهم . وبعد شهرين من هذا التاريخ نجد السيد سليمان الحرائرى يظهر للقراء من جديد بأسلوب جديد وشيق لم يعهدوه من قبل ، هو اسلوب التعليق على الأخبار الخارجية أى الأسلوب المزوج : العرض والتعليق ..

معرض باريس :

عندما انتشرت أخبار الاستعدادات لتنظيم معرض باريس فى عام ١٨٦٧ بادر السيد سليمان الحرائرى الى الكتابة عنه وعما فيه من فوائد .. فنجده يقدم للقراء عرضا لهذا المعرض (١) .. ويمزج عرضه بالتعليق تارة وبالوصف تارة أخرى . فيترك قارئه يتتبع معه من خلال سطور المقال معرض باريس قسما وزاوية ثم يظهر له فوائد المعرض بتعاليقه الرشيقة ، ويظهر لقارئه طرق الأوربيين فى تنظيم مثل هذا المعرض كل عشر سنوات أو أكثر فى مدينة ما من مدن أوربا ، ويطنب فى ذكر فوائد مثل هذه المعارض التى تتجاوز الحدود وتسمح بالتقاء الناس والأمم ، والتعارف على منتجاتها فى تلك الأيام .

---

(١) زار الامير عبد القادر هذا المعرض بدعوة من الامبراطور نابوليون الثالث.

عرض البضائع العام بمدينة باريس :

فيبدأ السيد سليمان الحرائرى موضوعه الذى شمل ثلاثة اعمدة الصفحة الأخيرة لجريدة « المبشر » رقم ٥٤٦ من سنة ١٨٦٧ قائلا :

« فى هذا الزمان رأوا (يقصد الأوربيين) أن خير كل الأمم فى ترقى صنائعها ومعارفها وخلطة بعضها مع بعض حتى يكثر الاشتغال ورواج البضائع وترقى التجارة التى بها صلاح كل أمة .

« وقالوا لا فائدة فى الانفراد الذى يبقى الناس فى الجهل والعداوة والأمور القديمة التى تنشأ عنها الحروب وتهلك العباد وتخرب البلاد ، فنحن كلنا أولاد الأرض أخوة وأقارب وكل الاديان تأمرنا بالاحسان واعانة بعضنا بعضا فى أمور المعيشة (١) » .

ففى القرآن :

« لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا اليهم ان الله يحب المقسطين » .

« انما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم فى الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على اخراجكم » .

وفى الانجيل قال عيسى : « أحبب قريبك مثل نفسك » وفسر القريب بأى انسان كان على أى دين كان . ومن فتاوى الامام السيوطى فى أجوبة المسائل الواردة من التكرور ، وهل تقبل هدية الكفار وتجوز صحبتهم ، والجواب نعم ، وفى شرح الشيخ حسن الشرنبالى على منظومة ابن وهبان وغيره من الواقعات : ان مسلما دعاه نصرانى الى ضيافة حلل له الذهاب لأن فيه ضربا من اليسر ،

---

(١) انظر جريدة المبشر رقم ٥٤٦ ــ ٥٤٧ ــ لسنة ١٨٦٧ .

وقد ندبنا اليه فى حق من لم يقاتلنا فى الدين . وتوجد نصوص اخرى يطول جلبها » .

يمكننا ان نفهم من هذا التمهيد الذى قدمه السيد سليمان الحرائرى وكأنه كان يخاطب التجار الجزائريين بأن الاختلاط والتبادل التجارى بين الأمم الاسلامية وغير الاسلامية مباح ويحلله الدين .. لذلك استهل موضوعه بما صرحت به الأديان السماوية ! « فلذلك جعلوا كل عشر سنين ونحوها عرضا عاما تعرض فيه الأمم بضائعها ليطلع الناس عليها ويعملوا ما عند كل أمة ، والفرق بين مصنوعاتها ونتائج فلاحتها وأرضها ومصنوعات غيرها ونتائج بلادها وما اخترعته تلك الأمة حديثا أو اتقنته أو جعلته أيسر وأسرع فى العمل ليتعلم الناس بعضهم من بعض . ويكثر الاشتغال والاتقان فى الصنع وتزيد نتائجه وتزيد التجارة فى الترقى ويعلم المتقن من غيره ليكثر الاشتراء منه ويكتب لأرباب البضائع المتقنة شهادة من العارفين، وتجازيهم الدولة بنواشن الافتخار ، وتعطيهم علامات من الذهب والفضة عليها صورة عاهل الفرنسيين » .

« مثلا يعلقونها فى ابواب دكاكينهم ليثق الناس بهم ويكثر الاشتراء منهم وتلهج صحف الأخبار بما ذكر عن كل البلاد وتشيع ما لكل أمة من البضائع وترقيها فى المصانع والمعارف فتترقى تجارتها ويعظم عند أهل أوربة ويقولون هى ساعية معنا فى التمدن والعمران ، وهذا كما لا يخفى مقصد جميل يحصل به لكل الأجناس خير جزيل » .

وبعد هذه المقدمة يصل الى الحديث عن المعرض والاستعدادات التى تجرى لتجهيزه وتنظيمه فيقول : « فلهذا سيقع فى باريس سنة ١٨٦٧ عرض كبير لم يسبق مثله فى العظمة » . ويبنى له قصر كبير كأنه مدينة يشغل من الأرض ١٤٦٫٥٨٨ مترا مربعا وحوله بستان متسع للنباتات والحيوانات والأشياء التى لا يمكن

وضعها فى القصر ، مساحته ـ البستان ـ ٣٠٠٠٠٠ متر مربع وتنفق على بنائه ٢٠ ألف فرنك ينتهى قبل الأول من كانون الأول (ديسمبر) سنة ١٨٦٦ ، ويكون فتحه فى أول ابريل ١٨٦٧ واغلاقه فى أكتوبر من السنة المذكورة » .

فعلى هذا تكون مدة عرض البضائع سبعة اشهر ولا يدفع احد شيئا من الكراء بل يعرض بضائعه مجانا ، وانما على دولته اجر حملها وترتيبها فى القصر والبستان المحيط به وزينة أمكنتها ويكون لكل أمة مجالس وحجرات فى القصر مكسوة بأثاثها كأنها بيوت وفيها تماثيل من الخشب لابسة ثياب تلك الأمة . فيرى التمثال من بعيد وكأنه رجل أو امرأة ، وتعلق فى حيطانها ألواح مزوقة مموهة بالذهب يكتب فيها حكم وأبيات شعر وغيرها بلغة تلك الأمة ثم تترجم باللغة الفرنسية وتكتب الترجمة معها ، ولكل أمة أو مملكة حظيرة خاصة بها فى البستان حول قصر العرض لتضع فيها حيوانات ونباتات وغيرها ، وقد بعثت دولة العاهل فى ذلك الى كل الدول لتشاركها فيه فأجابتها بالقبول ، فسر ذلك دولة العاهل ورأته من المودة ، وقد كلف العاهل جماعة من الأعيان العارفين فى باريس بتدبير أمور العرض وجعل الأمير ابنه الأنجب رئيسا عليها الا أنه لا يباشر أمور الرئاسة بل يتولاها أحد الوزراء ، وفى كل بلاد أجنبية تكلف دولتها جماعة من العارفين أيضا بتدبير أمور البضائع التى يبعث بها أهل تلك البلاد ، والكلام (التحادث) مع أربابها ومع الجماعة العاهلة التى بباريس وقد انتدب عدة أمراء من بيوت الملوك لأن يكونوا رؤساء جماعات بلادهم » . ويسرد بعد ذلك أسماء الأمراء فى انجلترا وبلجيكا والنمسا واسبانيا والقسطنطينية ثم يحرض دول الاسلام بأرسال وفودها وبضاعتها.

وينصح بارسال « أثاث البيوت والماعون الذى يحتاج اليه فى الدار وكل أصناف الأقمشة وموادها التى تصنع كالصوف والقطن

والكتان » ، وكذلك الحرير والوبر والشعر والوبر وثياب الرجال والنساء والصبيان ، وثيـاب الرجال المختلفة بحسب حرفهم ومناصبهم كثياب الأمراء والوزراء والقواد والقضاة والمفتين والعلماء والعامة والصناع والخدمة واليهود والعبيد تكون تامة من العمامة الى النعال ، وسروج الخيل وبرادع الدواب والحلى وكل ما يصاغ فى تلك البلاد ويرصـع بالجواهر الثمينة وغيرها لزينة النسـاء والصبيان والحبر والمحابر والأقـلام ، ومساطر الكاغط وألوان التزويق وجلود الكتب المزوقة بالذهب الفائقة المتقنة وآلات ذلك والأثاث والألواح المزوقة بالألوان والذهب وآلات الموسيقى وآلات الطب والجراحة والمكايل والاوزان والمقاييس وكل المسكوكات .

« وينبغى أن يكتب عليها أسماؤها وصرفها (قيمتها) والكتب المهمة الجيدة الخط ولا سيما التى فى التاريخ والأدب والحـكم والسياسة ونحو ذلك ، ومواد الصباغة والدباغة وأدواتهما ، والفلزات كالذهب والفضة والنحاس والحديد والقلصى أى القصدير ، والأشياء المصنوعة منها كالأوانى ونحوها ، والجواهر الثمينة واسلحة القتال القديمة والحديثة ، وأدوات السفر كالخيمة والخياء ونحوهما ، وكل المعادن والأحجار كالمرمر والرخام وحجر الجص وأحجار الجير والكلس وأصناف الطين والأملاح البحرية والمعدنية والجص والجير والقرميد والجلير والآجر ونحوها وآنية الخزف وغيرها وجميع ضروب الحطب والخشـب لصـنع أثاث البيوت وغيرها ، ولانشاء السفن والفلين أى الخشب الخفيف ونتائج كل الصنائع ونتائج الفلاحة كالحبوب والنباتات ذوات النور والزهر وغيرها من آلات الفلاحة والحيوانات الأهلية والوحشية ولا سيما كل ما فيه غرابة من جميع ما تقدم ، والبضائع النفيسـة التى اثمانها مرتفعة للزينة ونحوها ، والبضائع الرخيصة التى جعلت للفقراء ليمكنهم اشـتراؤها ، بالجملة جميع المواد الطبيعية من المعادن والنباتات والحيوانات وكل ما يصنع من الأثاث والأقمشة

والثياب وغيرها ، والآلات والحلاوى والمعاجين والأشربة الحلوة لأنه يعرض أيضا الاطعمة والاشربة والحلاوى وتباع فى المعرض ويصنعها الناس من كل الأمم هناك » .

« وأطعمة المسلمين تعجب أهل أوربة لأنها جديدة عندهم لا يعرفونها ، والحاصل أن هذا المعرض كبير جدا لم يسبق مثله ، يحتفل فيه كل الاحتفال » .

وبعد هذه القائمة الطويلة التى يعرض فيها ما على وفود المسلمين أن تقدمه فى معرض باريس يعود فيحبب للناس هذا الملتقى الدولى ويبين من جديد فوائده فيقول :

« الأحسن أن يحضره جماعة من بلاد المسلمين ليطلعوا على ما فيه ويتعلموا منه أشياء كثيرة يعود نفعها على بلادهم ، كذلك ينبغى أن يحضره جماعة من الصناع بآلاتهم ليصنعوا فيه أشياء من مواد بلادهم أمام الناس ويروا هم كيف يصنعها غيرهم ويصنع غيرها مما لا يعرفونه حتى يتعلموا ما يجهلونه » .

وهذا دليل على ارادة الخير لكل العباد والله الموفق للسداد انه كريم جواد » .

ألم يكن فى أسلوب السيد سليمان الحرائرى كثير من أسلوبنا المعاصر خاصة عندما يلح على فائدة التعارف بين الدول والأمم والتعارف فيما بينها ؟

كما نراه يلح على الدول الاسلامية بارسال وفود لها لتعرض ما عندها وتتعلم ما عند الغير فهو يقول :

« ينبغى أن يحضره جماعة من الصناع بآلاتهم ليصنعوا فيه أشياء من مواد بلادهم أمام الناس ويروا هم كيف يصنعها غيرهم ويصنع غيرها مما لا يعرفونه حتى يتعلموا ما يجهلون » .

كل هذا يدل دلالة واضحة على أن السيد سليمان الحرائرى كان من الرجال المطلعين على النهضة الغربية والمتتبعين لخطواتها العملاقة .

لذلك كان ينصح بأرسال الوفود الاسلامية لا لعرض أمتعتهم فحسب ، بل ولأخذ تجارب الغير والتعلم منهم وأخذ ما توصلوا اليه فى ميادين العلم والاختراع .

تعليق وايضاح :

اريد أن اتوقف مع القارىء الكريم لأقص عليه خطأ وقعت فيه، وانا أكتب عن السيد سليمان بن على الحرائرى فقد وصفته فى حلقة نشرتها فى مجلة الجيش الجزائرية بأنه أحد رواد الصحافة الجزائريين .. فى حين أنه كان من مواليد تونس وقد لفت نظرى الى هذا الخطأ الأستاذ أبو القاسم محمد كرو الكاتب التونسى الشهير ونشرنا له هذا التصحيح فى مجلة الجيش الجزائرية بعنوان « تعليق .. وايضاح .. » كما نشرت ردا عليه بعنوان « شكر .. واعتذار » . واننى أستسمح القارىء فى نشرهما عقب الحديث عن السيد سليمان بن على الحرائرى على التوالى وهما :

تعليق وايضـــاح ..!

بقلم : أبو القاسم محمد كرو

قرات بأهتمام كبير المقال المنشور فى مجلة الجيش الغراء تحت عنوان : « نشـــأة الصـــحافة فى الجزائر » . الحلقة الســـابعة : « الصحافة والصحفيون الجزائريون » بقلم : السيد الزبير سيفـه الاســـلام .

وقد لفت نظرى بوجه خاص حديثه عن « سليمان الحرائرى » وما وصفه به الكاتب المحترم من انه « أول جزائرى استعمل التعليق على الأحداث الخارجية » .

ثم مضى الكاتب يستعرض ما وجده من مقـــالات فى جريدة « المبشر » باسم الحرائرى . دون أن يترجم له بشىء . مع انه ترجم فى نفس الحلقة والموضوع لكاتب آخر هو : أحمد بن لفكون، وكانت ترجمته لهذا الأخير فى منتهى الدقة والعناية والشمول . فهل يعود السبب فى عدم ترجمته للحرائرى الى انعدام المصادر بتاتا ؟ أم أن الكاتب الفاضل لم يتمكن من الاطلاع عليها ؟

ومن جهتى فقد وجدت انه من غير المناسب بتاتا أن يخصه الكاتب بنصيب الأسد فى مقاله ثم لا يذكر لقرائه مـــكان ولادته ووفاته ، وتاريخهما ، ونوع ثقافته وأطوار حياته ، جريا على عادته فى التعريف بالصحفيين الجزائريين .

وحيث انه لم يفعل ذلك ، فها أنا اتطوع بهذا . آملا أن أكون بهذه الكلمة قد خدمت العلم والتاريخ واوضحت ما بقى خافيـــا وغامضا من حقيقة سليمان الحرائرى ، وحياته وموطنه الأصلى .

حياة سليمان الحرائرى :

ولد سليمان بن على الحرائرى الحسنى فى مدينة تونس عام ١٨٢٤ . وتعلم فى جامع الزيتونة وتخرج فيه بعد أن أستوعب كل علومه الدينية والادبية ، وكان ميالا للطب والعلوم الرياضية والعقلية والطبيعية . لذلك اقبل على دراستها بوسائله الخاصة ، كما انصرف الى تعلم اللغة الفرنسية ليطلع بواسطتها على الحضارة الأوربية وما بلغته من تطور علمى واجتماعى .

ولسنا نعلم حتى الآن كيف اتقن هذه اللغة ، وعلى يد من تعلمها، ولكننا نعلم انه أصبح مدرسا للعلوم الرياضية وهو دون العشرين من عمره ، ثم صار « كاتبا عدلا » بعد تخرجه فى جامع الزيتونة على مجرى العادة فى ذلك العهد .

وقد اشتغل فى نفس الوقت «كاتبا بالعربية» ومجانا فى القنصلية الفرنسية بتونس مدة أحد عشر عاما ١٨٤٥ — ١٨٥٦ . ولعله تعلم الفرنسية فيها بمعونة أحد موظفيها الفرنسيين ، أو بواسطة أحد الشرقيين المقيمين بتونس فى ذلك العهد ، والعاملين كتراجمة بين الاجانب والسلطات التونسية .

وفى سنة ١٨٤٨ حضر الى تونس — قادما الى الجزائر — راهب فرنسى يدعى « فرنسوا بورقاد » François Bourgade واسس كنيسة قرطاج ومتحفها . ومدرسة ابتدائية للاطفال الاجانب والاهالى . وقد تعرف عليه الحرائرى ، وقامت بينهما صداقة كبيرة كانت لها نتائج كثيرة .

ونظرا لعلاقة الحرائرى الوثيقة بهذا الراهب ، وبالقنصلية الفرنسية ولأفكاره المتحررة — فى ذلك العصر — لقى الحرائرى كثيرا من المضايقات والمتاعب من بيئته المحافظة ومن شيوخ الزيتونة ورجال الدين ، الأمر الذى حمله على مبارحة وطنه والهجرة الى فرنسا ،

حيث استقر بباريس فى عام ١٨٥٦ ، وهناك تجددت علاقته بالأب فرنسوا بورقاد الذى استقر هو الآخر بباريس . وربما وصلا اليها معا فى مهمة خاصة ؟ !

جريدة البرجيس :

وفى باريس أصـــدر « فرنسوا بورقاد » جريدة عربية نصف شهرية بأسم « برجبس باريس » وكان صديقه سليمان الحرائرى محـــررها الأول . واستمر صدورها ثمانى سنوات بين أعـــوام (١٨٥٩/١٨٦٦) .

وفى هذه الجريدة نشر الحرائرى كثيرا من المقالات المختلفــة المواضيع ، كما نشر بعضا من كتبه بشكل حلقات متوالية ، ونشر بنفس الطريقة ، بعض الكتب العربية والقديمـــة ، بعد تحقيقها وتصحيحها .

مؤلفات الحرائرى :

فمما نشر فى البرجيس من مؤلفاته :

١ ـ رسالة فى حوادث الجو (١) .

٢ ـ رسالة فى الطاعون (٢) .

٣ ـ منتخبات أدبية تحت اسم « طرب المسامع » وقــد ضمنها مختارات من أشعار العرب ومأثوراتهم ، مبوبة الى موضوعات

---

(١) يلاحظ أن الكاتب لم يذكر الا مقـــالتين للحرائرى وجدهما فى جريدة المبشر ، ولم يذكر اذا كان له انتاج آخر بها أم لا .

(٢) نشر فى جريدة بعض فصولها فقط ثم طبعها كاملة عام ١٨٦٢ .

أدبية واجتماعية (١) .

ونشر فى الجريدة كتبا من تحقيقه مستقلة تحمل اسمه (٢) .

٤ ـ قلائد العقبان ، الفتح بن خاقان الاندلسى .

٥ ـ سيرة عنترة بن شداد العبسى فى جزئين .

٦ ـ مقامات ابن المعظم .

وباضافة الى هذه الكتب نشر رسائل كثيرة صغيرة عرفنا منها حتى الآن :

٧ ـ فتوى فى اباحة زكاة النصارى .

٨ ـ اجوبة الحيارى عن قلنسوة النصارى .

٩ ـ عرض البضائع العام ، (عن معرض باريس ١٨٦٧) .

١٠ ـ القول المحقق فى البن المحرق .

١١ ـ مقدمة (هامة للغاية) وضعها لترجمة كتاب « لومون » فى تعليم قواعد الفرنسية .

هذه .. وهناك بعض من كتبه السابقة مطبوع بالفرنسية ، وتولى هو ترجمتها بنفسه ، مثل عرض البضائع ومقدمته لكتاب لومون المذكور رقم ١١ ، والتى ضمنها دعوة حارة للمسلمين كى

---

(١) لم نجد منها نسخة مستقلة بشكل كتاب ، وان كان هو يشير فى مقدمتها ـ نشرة الجريدة ـ الى انه نشرها سابقا بتونس .

(٢) تابعنا هذه المختارات فى البرجيس ، فلم نجد عليها اسم الجزائرى ، ولكننا نرجح انها له لما يظهر عليها من روحه واسلوبه .

ينهضوا من سباتهم ويأخذوا بأسباب الحضارة والتقدم ويتعلموا لغات أوروبا وصنائعها وعلومها .

ومن المحتمل ان تكون له رسائل ومترجمات اخرى لم نطلع عليها . ونعتقد كذلك بانه ساهم مع فرنسوا بورقاد – منذ كانا بتونس – فى وضع الكتاب المسمى « مسامرات قرطاجنة » وهو كتاب يقع فى جزئين ، طبع بتونس على الحجر ١٨٤٩ ثم اعيد طبعه بالحروف فى باريس ١٨٥٩ وفيه كثير من الاراء المنتقدة لاوضاع المجتمع الاسلامى فى منتصف القرن التاسع عشر ، لا سيما وضع المرأة المسلمة ، وهو مكتوب بأسلوب الحوار بين قاض ومفتى وراهب .

ولسنا فى مقام الحديث عن أفكاره وآرائه وتقييم مؤلفاته ، وسرد جميع انتاجه الفكرى والصحفى لكننا نشير الى أن مقالاته المنشورة فى جريدة « المبشر » والتى تحدث عنها الكاتب الفاضل(١) لم يكتبها الحرائرى فيما ترجع خصيصا للمبشر وانما هى منقولة من جريدة البرجيس أو من كتبه ، وبذلك يكون استنتاج الكاتب المحترم من « ان الحرائرى أول معلق جزائرى » فى غير محله . وهكذا يتضح :

١ – ان الحرائرى ليس من أبناء الجزائر ولا من مواليدها .

٢ – انه لم يكتب – ما نشر باسمه خصيصا للمبشر ، بل هى التى رأت فيها فائدة لقرائها فنقلتها لهم . وقد رأينا من سرد مؤلفاته أن « عرض البضائع » أو وصف معرض باريس .

---

(١) راجع بحثنا « حول التراث العربى بتونس فى مائة عام » مجلة الفكر – تونس ماى ١٩٦٩ .

الذى اعتبره الكاتب « من نوع التعليق » على الحـــوادث الخارجية هو مطبوع فى باريس عام ١٨٦٧ وقد كتبه الجزائرى كشاهد عيان لأنه كان مقيما بها .

واذا كان عرض البضائع مطبوعا فى نفس السنة التى أختير نشره ثانية فى المبشر ــ وهو الذى لا تتجاوز صفحاته ستا من الحجم الصغير ، فان الفصل المتعلق بحوادث الجو . والمنشور عام ١٨٧٦ بالمبشر هو جزء ضئيل جدا من كتاب للجزائرى فى نفس الموضوع . وبنفس العنوان ــ أنظر رقم (١) من مؤلفاته ــ تم طبعه بباريس عام ١٨٦٢ وبه ٢٦٢ صفحة كما يحمل فى أوله اهداء لباى تونس يومئذ محمد الصادق . والملاحظ أن بعض فصول هذا الكتاب قد سبق نشرها فى جريدة البرجيس بباريس ، ويحتمل ان الفصل المنشور بالمبشر ، قد جرى نقله من الكتاب أو من البرجيس .

وفاة الجزائرى :

ونعود الى متابعة حياة الجزائرى فنذكر أنه أصبح أستاذا للغة العربية فى معهد اللغات الشرقية بباريس بداية من عام ١٨٧١ حتى وفاته يوم ١٨٧٧/٩/٢٨ . وقد ثبت أنه لم يكن متزوجا ولا كان له قريب بباريس ، وانه دفن فى الجناح الاسلامى من مقبرة الأب لاشيز Père la chaise وبعد خمس سنوات من دفنه نقلت وفاته الى « بئر المهجورين » (١) حيث لم يحضر خلالها من يدفع

---

(١) هذه التسمية من عندنا .

مراجـــع :

١ ــ فيليب طرازى : تاريخ الصحافة ج ١ ص ١١٩ .
٢ ــ الزركلى : الاعلام ج ٢ ص ١٩٤ .
٣ ــ كحاله : معجم المؤلفين ج ٤ ص ٢٧٠ .
٤ ــ وثائق خاصـــة .

ثمن تربته ويبنى ضريحه . وبذلك ضاع كل أثر مادي له بسبب تراتيب المقبرة التى اطلعت عليها مباشرة أثناء زيارتى لها عام ١٩٦٦ فى محاولة للبحث عن قبره . وقد أشار علي بذلك وكلفنى به الاستاذ الطيب العنانى المحامى بتونس، وأحد كتابها الأدباء المتازين وهو مهتم كثيرا بحياة الحرائرى واثاره ، ووعد بوضع كتاب عنهما وما زلنا ننتظر وفاءه بالوعد .

شكر واعتذار :

لفت الاستاذ أبو القاسم محمد كرو نظرنا الى خطأ وقع فى الحلقة التى كتبناها عن السيد سليمان الحرائرى ضمن الحلقات التى كتبناها عن صحفى الجزائر فى القرن الماضى ، وهذا الخطأ هو اننا نسبنا السيد سليمان الحرائرى الى انه جزائرى ، فى حين أنه من مواليد تونس . والأستاذ أبو القاسم محمد كرو يلومنا لاننا لم نتحدث عن حياته وموطنه وانتاجه ومولده ومماته ، جريا على عادتنا مع الآخرين عندما ترجمنا لهم .

والسبب فى عدم تقديم ترجمة السيد الحرائرى هو عدم وجود المراجع التى نعتمد عليها فى ذلك ، ولذلك اقتصرنا على ذكر ما رأيناه صالحا ، وحتى بالنسبة لصحافيين آخرين اقتصرنا على ما رأيناه صالحا وذلك دائما لعدم توفر المصادر .

على كل ، رجعت لدراسة الموضوع من جديد ، فوجدت أن المراجع التى اعتمدت عليها قد وقعت فى خطأ كبير ، فنتج عن ذلك أن وقعت أنا فى نفس الخطأ . مثلا، عندما تحدثت عن السيد سليمان ابن على الحرائرى قلت : انه كان رئيس تحرير للجريدة العربية التى أنشأها السيد الكونت رشيد الدحداح فى باريس عام ١٨٥٨ ، وقلت عن السيد سليمان الحرائرى : أنه كان أول معلق على الأحداث الخارجية ، وأول من كتب فى معرض باريس ولم تكن فى

ذلك مخطئين الا فى شىء واحد ، وهو ما نقرره للحقيقة والتاريخ وللامانة العلمية ، هو أنه قـــد اتضح لنا من المقارنة والتحليل ان سليمان الحرائرى وسليمان بن على الحرائرى هما شخص واحـد هو « سليمان بن على الحرائرى » .

وقد وقع الغلط فى المراجع التى اعتمدنا عليها حيث وضعت نقطة فوق حرف الراء من كلمة الحرائرى ونقطـــة حرف الجيم فصارت تنطق الجزائرى وبناء على ذلك نسبناه الى مواليد الجزائر فى حين انه كان تونسى المولد ، واعتمدنا بالنسبة للثانى ــ سليمان الحرائرى ــ على ما اشتهر به هذ الكاتب الصحافى الكبير من نشاط فى الصحافة الفرنسية جنبا الى جنب مع الجزائريين فى الستينات والسبعينات من القرن الماضى (١) ، وقد تحدثنا عنهم فى الحلقات السابقة .

ونحن اذ نسجل هذا للحقيقة والتاريخ والأمانة العلمية فاننا نشكر الاستاذ أبو القاسم محمد كرو على الايضاح الذى قدمه لنـا فجعلنا نراجع الموضوع دراسة وتحليلا ، ونقارن بين الأول والثانى ونصل الى الحقيقة ، تدفعنا فى ذلك خـدمة تراث مغـربنا الكبير ولا يسعنا الا أن نطلب من كتابنا ومثقفينا فى المغرب الكبير لفت نظرنا اذا وقعنا فى اغلاط بسبب عدم المراجع والمصادر لدينا ، خاصة والجميع يعرف بأن الجزائر قد افرغت من هذه المراجع حيث قضى عليها الدخيل الأجنبى أيام وجوده فى هذه الربوع .

---

(١) كتب الكثير من المواضيع فى جريدة « المبشر » الحكومية الفرنسية التى كانت تصدر فى الجزائر ، وقد أشرنا الى ذلك عندما تحدثنا عنه ، وكانت تضع امضاءاته فى آخر الموضوع دون أن تنعته بالتونسى ، كمـا جرت عليه العـادة أيامذاك ، حيث يضاف الى اسم الشخص موطنه .

وبهذه المناسبة ، أى مناسبة الحديث عن ايضاح السيد أبو القاسم محمد كرو والذى نشر بمجلة « الجيش » عدد ٧٠ ، يسرنا أن نقول كلمة فى السيد أبو القاسم محمد كرو ، وان كان لا يحتاج الى تعريف ، وخاصة فى الجزائر . فمن منا لايعرف ماكتب عن الجزائر مثل : « مايو شهر الدماء ، والدموع فى المغرب العربى» والشهيد أحمد رضا حوحو ومشاركته فى اعداد كتاب « البعث . صوت الجزائر » .

الاستاذ أبو القاسم محمد كرو من كتاب المغرب العربى الكبير المنتجين ، وهو معروف فى الأوساط الأدبية فى المشرق والمغرب العربيين ، ولذلك ، كما قلنا ، فهو لا يحتاج الى تعريف .

فى الجزائر يعرفه معظم مثقفينا ، فمنهم من تتلمذ عليه بتونس ، ومنهم من زامله بالقطر التونسى الشقيق فى التدريس وبعضهم شاركه فى التأليف .

ولد السيد أبو القاسم محمد كرو فى مدينة قفصة سنة ١٩٢٤ ، وبها تلقى تعليمه الابتدائى ثم التحق بالزيتونة فى العاصمة وبها أكمل تعليمه الثانوى .

وفى عام ١٩٤٨ انطلق الى الشرق العربى طلبا للعلم والمزيد من المعرفة .

وفى مصر ، انضم الى معهد الدراسات الخصوصية فاجتاز امتحان الشهادة الثانوية فى مصر لكنه لم يقم طويلا بمصر والتحق بالعراق ضمن بعثة طلابية ، أرسلها مكتب المغرب العربى بالقاهرة حينذاك .

وفى العراق ، تابع دراسته الى أن تحصل على درجة « الليسانس » .

هذا بالنسبة لنشأته ودراسته . أما بالنسبة لنشاطاته الوطنية ، فانه عندما ذهب ليدرس بالعراق كان ضمن بعثة أرسلها مكتب المغرب العربى ، كما ذكرنا ، وكان ، وهو يدرس ، كثير النشاط والعمل خدمة لقضية المغرب الكبير حيث كان يكتب أحاديث للاذاعة العراقية والعربية ومقالات للصحف العراقية والعربية . وقام بالقاء محاضرات كثيرة لشرح حقوق العرب فى شمال أفريقيا ، ومظالم الاستعمار فى المغرب الكبير ، ومن جملة هذه المحاضرات ، محاضرة بعنوان « مايو شهر الدماء والدموع فى المغرب العربى » ، وقد طبعها طبعة أولى فى كتاب ببغداد عام ١٩٥١ .

أما فى مجال التأليف ، فان مؤلفاته التى نقدمها للقراء تغنى عن كل تعليق ، وهى :

— مايو شهر الدماء والدموع فى المغرب العربى : طبعة أولى بغداد ١٩٥١ ، طبعة ثانية تونس ١٩٥٦ .

— الشابى حياته وشعره : طبعة أولى بيروت ١٩٥٢ طبعة ثانية بيروت ١٩٥٤ ، طبعة ثالثة بيروت ١٩٦٠ .

— كفاح الشابى : طبعة أولى بيروت ١٩٥٤ ـ طبعة ثانية تونس ١٩٥٧ ، طبعة ثالثة بيروت ١٩٦٠ .

— حصاد القلم : طبعة أولى القاهرة ١٩٥٤ .

— نداء للعمل : طبعة أولى تونس ١٩٥٥ .

— شوقى وابن زيدون فى نونيتهما : طبعة أولى تونس ١٩٥٥ .

— العرب وابن خلدون : طبعة أولى تونس ١٩٥٦ .

— الشهيد أحمد رضا حوحو : طبعة أولى تونس ١٩٥٧ .

ـــ الطاهر الحداد : طبعة أولى تونس ١٩٥٧ ــ طبعة ثانية تونس ١٩٥٧ .

ـــ حديث رمضان : طبعة أولى تونس ١٩٥٨ .

ـــ خير الدين التونسى : طبعة أولى تونس ١٩٥٨ .

ـــ هتاف للجمهورية : طبعة أولى بيروت .

ـــ آثار الشابى وصداه فى الشرق : طبعة أولى بيروت ١٩٦١ .

ـــ شخصيات ادبية : بالاشتراك مع الأستاذ عبد الله شريط : طبعة أولى تونس ١٩٥٨ .

ـــ دروس التـاريخ الابتدائى ، جزآن ، بالاشـتراك مع عثمان الحويمدى : طبعة أولى تونس ١٩٥٩ .

ـــ اعلام المغرب العربى سلسلة : طبعة أولى تونس ١٩٥٩ .

وهناك كتب اسهم فى اعدادها :

ـــ هيئة الأمم المتحدة : طبعة أولى تونس ١٩٥٦ طبعة ثانية ١٩٥٦

ـــ صوت الجزائر : طبعة ثانية ١٩٥٨ .

ـــ كفاح وحب : طبعة أولى بيروت ١٩٦١ .

أما بالنسبة للمقالات فهى لا تحصى .. هـذا هو السـيد أبو القاسم محمد كرو نتمنى له الصـحة ومزيدا من النشـاط الثقافى والادبى لفائدة تراثنا المجيد بالمغرب الكبير .

الفصل السابع

أساتذة المدارس وفن الصحافة

مصطفى بن السادات

((النصيحة الدرية فى تربيـــة الذرية))

مصطفى بن بريهمات

دخوله معترك الصحافة

محمود الشيخ على

محمد البـــدوى

اساتذة المدارس وفن الصحافة

●● والآن وبعد الحديث عن رواد الصحافة الأوائل فى الجزائر من صحافيين ومترجمين الذين ظهروا فى السنوات الأولى للنصف الثانى من القرن الماضى ، ننتقل الى الحديث عن أساتذة المدارس (الفرنسية ــ الاسلامية) . ونخص منهم بالذكر اساتذة مدرسة قسنطينة والجزائر ، حيث كتب بعض أساتذتها مقالات فى الصحف العربية ــ جريدة المبشر ــ بعضــها مادحة للامبراطور نابوليون ، وبعضها ناصحة للمواطنين لكى يعلموا ابنائهم ، ويبعثوا بهم الى مناهل العلم والمعرفة .

مصطفى بن الســادات :

ولنبدأ بالحديث عن السيد الأستاذ مصطفى بن الســادات ، لأنه من السباقين الى الكتابة فى ميدان الصحافة .

كان السيد مصطفى بن السادات من رجال العلم والمعلمين فى بلادنا فى الستينات من القرن الماضى ، ثم بعد ذلك مديرا واستاذا بالمدرسة الاسلامية بمدينة قسنطينة ، تلك المدرســة التى اعاد الفرنسيون فتحها من جــديد ، وسميت : بالمدرســة الفرنسية الاسلامية .

وبحكم تكوينه العلمى ، ومهنته كأستاذ معلم ومربى ، فقــد كان داعية لنشر العلم والتعلم والقراءة بين الناس ، بحيث لم يقتنع باســداء النصيحة للمواطنين الجزائريين ضمن اطار ضــيق لكى يبعثوا بأبنائهم الى تلك المدرسة والى جميع المدارس ، بل اختار اطارا أوسع وميدانا أفسح ليخاطب الناس منه ، ويظهر لهم منافع العلم والمعرفة فى هذا الميدان ، هو ميدان الصحافة .

فكان يكتب من حين لآخر مقالات طوالا على صفحات (المبشر) يحاول فيها أظهار الفوائد الكثيرة من التعليم ، ويستشهد بأقوال الحكماء والعلماء مدعما أقواله وكتاباته .

ففى مقال له (بجريدة المبشر) نشر بعدد ٤١٤ سنة ١٨٦٤ ، قدم نصيحة وارشادا لمواطنيه تحت العنوان التالى :

نصيحة وارشاد :

« لمن عطل عن مسابقة الأقلام واهدار المدد » فقال :

ذكر حكيم من علماء الفرنسيين السالفين ، أن الانسان الذى لا يعرف الكتابة ، ولو كان عارفا بالتهجى والقراءة ، فأنه مثل الطير المعدوم أحد الجناحين ، وذلك وان كان له ادراك بالقراءة للاطلاع على ما تبديه أفكار غيره ، فلا طاقة له على أظهار ما تبديه أفكاره ولا على تخليدها ـ ويقصد هنا التدوين والكتابة ، لأن كل مكتوب مخلد ـ ويسترسل فى وصف الامى الذى لا يعرف التعبير عن أفكاره كتابيا .. حتى يقول :

.. أنه يسمع الخطاب ولا يحسن رد الجواب ، لأنه كامل فى حاسة السمع والبصر ، وناقص فى النطق من جهة ابداء الخبر ..

ويذهب السيد الأستاذ مصطفى بن السادات فى اعطاء الامثلة على جدوى مقاله .. حتى يقول :

.. فالذى لا يعرف الكتابة لا يستطيع تقييد الواقعة بنفسها والحادثة برمتها ، وتاريخها بيومها وعامها الى غير ذلك ..

أما الانسان الجامع بين القراءة والكتابة فانه بمثابة الطير ذى الجناحين فى الاهتداء والاصابة .

فكل من سار على الدرب وصل :

هكذا يدعو الناس الى التعلم والتفقه . وكان لا شــك عالما عارفا بسير النهضة العلمية فى أوروبا ، تلك النهضــة التى عمت القارة الأوروبية ، وأخذت طريقها الى المشرق العربى .

بعد هذا النموذج ، نقدم مقالا ثانيا يزف فيه البشرى لمواطنيه بتأسيس ، بل بناء المدرســة السلطانية بقسنطينة . ومنه نرى مدى البهجة والسرور الذى أدخله على قلبه هــذا الحادث الكبير الأهمية .

لذلك اراد ان يشــاركه بنو وطنه فى بهجته وسروره ، فكتب مقاله تحت العنوان التالى :

النصيحة الدرية فى تربية الذرية :

وفى هذا المقال كان يدعو أيضا للعلم وينصح الغافلين . ولقد قدم هذا الحدث الهام لقراء جريدة « المبشر » لا كمخبر ، ولكن نجد فى أسلوبه ميلا ــ بالاضــافة الى النصيحة والارشــاد ــ الى التحقيق الصحفى .

فهو يصــف المكان الذى بنيت فيه المدرســة ، ويصف جــو البهجة والسرور الباديين على ابناء المدينة . ويذكر الشــخصيات التى حضرت هذا الحدث .

ففى وصــفه لمكان المدرســة يقول : انها انشــئت فى المحل ــ المكان ــ المسمى قديما ــ بالمسيد ــ ولا يخفى ما فيه من الفال المحبوب عند العرب لبلوغ ابنائهم مقام التشييد وطيب هواء هذا المحل (المكان) ، وحسن منظره ، ليس لغيره عليه من مزيد (١) .

---

(١) من المعتقد أن يكون موقع المدرسة السلطانية هو المكان الذى يوجد فيه الان مستشفى قسنطينة الجامعى .

وبذلك ارتفعت المدرسة المذكورة على البلد ، وحسنت ببستان بحلى جوانبها مع اتساع مساحتها ، وتشـــييد بنائها القــوى ، وارتفاع جدرانها ، وتزيينها بقبتين بديعتى الشكل فى ركنها يسر الناظر ويفرح الخاطر ، وازدادت البلدة بها زينة ، وصارت من محاسنها المعدودة كالدرة الثمينة ، بحيث تكل العبارة عن تعــداد أوصافها الجميلة وتعجز الطاقة عن احصــاء فضائلها الجميلة . فما هى الا عروس تجلت على البلد تروم كفؤا يتغنى بزينة العــلم بالجد . باذلا فى طلبه وســعيه مع الجهــد ، وأوفق نجمه طالع الســــعد .

ومن طلب شيئا ناله متى القى اليه بكليته وأقباله . وبعــد هذا الوصف للمكان الذى تربعت فوقه المدرســة ، والقباب التى وضعت على رأسها ، يرجع للحديث عن العلم بل العلوم التى تدرس فيها فيقول ؛

«وأما العلوم المنشورة فيها فهى اللغة والكتابة ، مع ما يتفرع عنهما من علم الحساب والرقم والمحاسبة والأدب الذى هو الغاية ، ومحاسن الأخلاق متنوعة بدون حصر ولا نهاية .

والحال انها لم تتجرد عن علوم العربية كتابة ولغة مع الديانة التعبدية والعلمية .

ويوجد لكل صنف مما ذكر من العلوم شيخ مخصص به معلوم وأن العربية لها شــيخ مخصص ، وامام من خيار العلماء يقــوم بالديانة على العموم والخصوص .. يصف مســجدها ومصحتها وقاعة الأكل بها وهلم جرا .

ثم ينتقل الى أظهار محاسن العلم قائلا :

وبعد ذلك يعطى وصفا لأنظمة المدرسة الداخلية ، ان الانسان ما هو انسان الا باصغريه : قلبه ولسانه . فالقلب يستنير بضياء

العلم ، واللسان يخبر عنه ويترجم . وأما اذا بقى الانسان يتخبط فى ظلمة الجهل ، وتردفه ذريته على ذلك الطريق الوحل فماله من غرض (فى هذه الدنيا) الا خراب العالم .

وبطول ما يعمر فى حياته فما يرى الا الدواهى تتعاظم عليه وتتراكم .

ويحاول بهذا تأكيد قوله بأن فوائد العلم جمة بالنسبة لحياة الانسان ، فيعطى السيد مصطفى بن السادات دليلا لذلك بالأشخاص الذين تخرجوا من مدرسة الجزائر العاصمة ، واحتلوا مناصب هامة فى الادارة والجيش . وللتأكيد على ذلك يسرد أسماءهم ويقول : أنهم لو لم يتبحروا فى العلم لم يكن ممكنا لهم أن يتوصلوا الى احتلال مناصب كبيرة عالية فى الجيش خاصة والترجمة والقضاء والطب والأستاذية بوجه عام .

من هنا ، من هذين النموذجين ــ المقالين ــ يظهر لنا السيد الأستاذ مصطفى بن السادات أنه كان داعية كبيرا للعلم والتعلم فى هذا الوقت الذى كان الجزائريين فيه متخوفين من الفرنسيين ، فانعزلوا على أنفسهم ومنعوا أولادهم من الذهاب الى المدارس الفرنسية خوفا عليهم من التفرنس .

فكان يحاول اقناع الجزائريين المتخوفين على أطفالهم من الضياع ، أو المتشككين فى وصول أبنائهم الى مناصب علمية عالية أو مناصب ادارية مثل القضاء والترجمة وغيرها . لذلك ينصح الناس بتعلم اللغة الفرنسية لغة الوظيف ــ لنيل مثل هذه الوظائف ويؤكد بأن الوصول الى درجات المجد يكون حليف المثابرين فيقول : « كل من سار على الدرب وصل ، وكل من توجه بكليته لمحمود بلغ الأمل ، لاسيما انه فى المستقبل لا يمكن نيل الوظيف بشىء الا بأكتساب العلم الشريف، وعلى رأسه معرفةاللغةالفرنسية

التى عليها المدار ، ولصاحبها يحل اللغز ، والعرى منها يبقى فى خمول الادبار ، ومن حصلها استغنى عن التلبس بالتولية ، فهى له نعم التحلية ، يتنزه فى مراتع آدابها وان أقل ما يستفاد بهـا الاستغناء عن اتخاذ الوساطة اليها لقيامه بمواردها ومصادرها .

وهذا القدر كاف لقابل النصيحة التى هى من الدين ، وروايته صحيحة ، والله سبحانه هو الملهم للرشاد ، وعليه الاعتماد فى قبول التوفيق للعباد » .

هكذا يختتم مقاله بنصيحة الجزائريين بتعلم لغتهم ، واللغـة الفرنسية التى صـارت لغة التوظيف حينذاك . وينصح من هم ليسوا فى حاجة الى توظيف بأن أقل ما يستفاد منها عدم البحث عن الواسطة لقضاء حاجتهم .

هذا هو السيد مصطفى بن السادات ، الأستاذ الذى استعمل الصحافة لخدمة العلم .

ولا شك ، وهو الداعى الى تعلم اللغة الفرنسـية ، أنه كان مزدوج اللغة العربية والفرنسية ، وأنه لم يمدح أحدا الا العـلم والعلم وحده . وتقديم النصائح لبنى قومه .

* * *

السيد حسن بن بريهمات :

من مواليد العاصـمة ، وينتمى الى احـدى الأسر الجزائرية المحترمة ، أشتهر جميع أفرادها بالعلم والثقافة .

زاول تعليمه بالجزائر العاصـمة . وكان تعليمه مزدوجـا . ويغلب على الظـن أنه كان من الجزائريين الأوائل الذين دخـلوا المدرسة الفرنسية التى فتحت أبوابها ـ لأول مرة ـ فى الجزائر العاصمة حوالى ١٨٣٦ .

وبعد تخرجه من المدرسة (الفرنسية ـ الاسلامية) بالعاصمة امتهن الوظيف ، فعين مستشارا بدار العمالة عام ١٨٦٥ . وعندما زار نابوليون الجزائر للمرة الثانية ، كان السيد حسن بن بريهمات يشغل منصب مستشار العمالة . وبهذه المناسبة كان من بين الأعيان والشخصيات التى استقبلت نابوليون ، وتناولت معه طعام الأفطار فى قصر الصيف (قصر الشعب حاليا) ، والقى كلمة امام نابوليون باسم الأعيان على مائدة الغذاء ومدح نابوليون مدحا كبيرا ، واشاد فيها بخصاله الحميدة . .

دخوله معترك الصحافة :

وبعد أيام كتب مقالا طويلا فى الجريدة العربية مدح فيه نابوليون مرة ثانية ، وبهذه الطريقة كتب السيد حسن بن بريهمات فى الصحافة ، فكانت كتاباته مدحا للسلطات الفرنسية ولنابوليون. وهو فى مقالاته يختلف عن السيد مصطفى بن السادات الذى سخر قلمه لارشاد مواطنيه ولخدمة العلم .

ومن منصب المستشار بدار عمالة الجزائر نقل السيد حسن ابن بريهمات الى منصب مدير للمدرسة الفرنسية الاسلامية ، حيث عين مديرا وأستاذا بها .

ومن بين كتاباته فى الصحافة وهو مدير وأستاذ بالمدرسة المذكورة ، «مقال أبن فيه السيد حسن بن أحمد امام المدرسة الذى توفى يوم ١٥ فبراير عام ١٨٦٦ .

ومن مقاله هذا نتعرف على أحد البنائين الجزائريين الشهيرين الذين شاركوا فى بناء المسجد العظيم (جامع كتشاوة) . هذا المهندس هو والد الامام حسن . فالسيد حسن بن بريهمات يتحدث عن هذا المهندس فى مقاله ذلك قائلا :

« ان السيد أحمد والد السيد الامام حسن امام المدرسة الفرنسية الاسلامية كان قد شارك مشاركة فعالة فى بناء مسجد كتشاوة ، وهو الذى بنى مسجدا صغيرا بالقرب من ضريح « سيدى محمد الشريف » وكان أمينا للبنائين فى الجزائر . وهو أمي لا يعرف القراءة والكتابة وهو الذى بنى معظم القباب لمساجد العاصمة » ..

لقد أفادنا السيد حسن بن بريهمات بمقاله هذا من الجانب التاريخى ، اذ بواسطته تعرفنا بالتقريب ، على تاريخ بناء جامع كتشاوة كما أنه سيسهل للباحثين تأريخ القباب الجزائرية ، اذا وجد من يبحث عن تاريخها فى يوم ما .

اما عن كتابته فى مدح السلطات الادارية الفرنسية فاننى لم أجد فيها ما يذكر ، لأنها لا تشرف ولذلك أهملتها (١) .

هذا هو السيد الأستاذ حسن بن بريهمات الذى اهتم بالتربية وبالنظام الداخلى للمدرسة المزدوجة وبعد وفاته ترك ثلاثة أطفال : وهم ابراهيم وأحمد وعمار : امتهنوا كلهم وظيفة الترجمة فى صفوف الجيش الفرنسى (٢) .

الأستاذ محمود الشيخ على :

وبعد الأستاذ حسن بن بريهمات الذى كانت كتاباته مدحا للسلطات الفرنسية ، نستعرض بعض النماذج من كتابات الأستاذ محمود بن الشيخ على ، وهى كما قال هو نفسه : « نصيحة

---

(١) نشر مقاله فى مدح نابوليون فى الجريدة العربية « المبشر » فى شهر مارس ١٨٦٥ .

(٢) مراجع الموضوع سلسلة جريدة « المبشر » وكتاب « أعيان المغاربة » لشارل فيردو .

عمومية لأهل الحضر والبادية » . ومن خلال هذه « النصيحة » تنكشف لنا الشخصية الحقيقية لهذا الجزائرى ، فيبرز لنا من تلك النماذج رجل ملم الماما واسعا بالأحداث السياسية والتطورات الفكرية ، والنهضة الثقافية فى عصره ، سواء كانت فى البلدان الغربية ذات الحضارة العصرية ، أو فى البلاد الشرقية ذات الحضارات العريقة والمتطلعة للتقدم .

فهو من كثرة اطلاعه على ما تسعى اليه الشعوب الشرقية للحاق بالركب يقدم فى مقال طويل عدد الطلبة (٤٠) الذين بعث بهم محمد على الكبير منذ سنوات للتعلم فى باريس من أجل ترجمة كتب الحضارة الغربية .

ففى شهر يوليو عام ١٨٦٧ وقد وصلت الجزائر ما وصلت اليه ، من كوارث الحرب الطويلة وكوارث الطبيعة كتب السيد محمود بن الشيخ على فى المبشر مقالا مطولا غطى صفحة كاملة وثلث الصفحة ، وكانت دورة الامتحان الى الدخول فى سلك المترجمين العسكريين قد حانت .

ويبدو فى مقاله ان الناس فى الجزائر قد أصبحوا لا يفهمون معنى للعلم وفوائده ، فأهملوه وصاروا لا يبالون به ولذلك رأى هو من واجبه « أن ينقذهم بنبذة من فضل العلم » ، كما دفعه الى هذه الكتابة فهم الناس للعلم بانه ديانة أو العلم علم الديانة فقال : كان الباعث لى على هذا القصد هو وهم الكثير من الناس ان العلم مخصص بعلم الديانة فقط .. لذلك رأى من الواجب عليه أن يوقظ الناس من سباتهم وأن يرجعهم عن فهم خاطىء على فهم صحيح ، خاصة وهو المطلع على تطور الأحداث وسرعة عجلة التقدم .

فكتب مقاله تحت عنوان ، جميل بسيط ، ومع بساطته فهو يحمل الكثير من المعانى . وهو كما يلى : « نصيحة عمومية لأهل الحضر والبادية » .

اراد استيقاظهم لعلهم يتذكرون .

استهل مقاله بحمد الله وبأسلوب السجع كجميع الكتاب حينذاك فقال « حمدا لمن علم آدم الأسماء . وشرف بنيه عن سائر الحيوان بالعقل والتمييز والصورة الوسماء ، وخصصهم بالنطق والبيان عما فى الضمير ليبلغوا مرمى ، ونشكره على ما ألهم ، علم بالقلم على الانسان ما لم يعلم » .

وبعد هذه المقدمة المسجوعة التى سار فيها على الطريق المعتاد حينذاك ، شرح الوضع الذى آل اليه الجزائريون من عدم الاهتمام بالتعلم دون أن يشرح أسباب هذا الاهتمام ، التى هى الحرب التى استمرت حتى هذا الوقت (سبعا وثلاثين سنة) فقال :

« وبعد لما الكثير من الناس فى هذا الزمان يتراخون عن التعلم بخلا بأنفسهم وكسلا ، أردت أن نوقظهم بنبذة فى فضل العلم وشرفه ، وذم الجهل وغوائله ، لعلهم يتذكرون وتحيا قريحتهم للقلم كى يبلغوا ما يكملهم للرتب الانسانية .

« ومن المعلوم أن الشخص اذا لم يفهم معنى الشىء المطلوب لا تتحرك دواعيه اليه ، ومن جهل شيئا عاداه ، لأن العلم هو الخاصية التى يتميز بها الانسان عن سائر البهائم .

فلفظ الانسان مشتق من الانس والاستئناس يستلزم الألفة ، ولا الفة الا بالمخالطة ، ولا مخالطة الا بالملاءمة ولا ملاءمة الا بالمعرفة، ولا معرفة الا بالتعلم ، والتعلم يؤلف بين العباد على اختلاف ألسنتها وطبائعها » .

ثم بالاضافة لعامل الاستيقاظ اى استيقاظ الناس من سباتهم وتحريضهم على العلم والمعرفة ، هناك عامل آخر بالنسبة اليهم هو التفسير الذى أصبح يطلق على العلم ، ومعنى لفظة العلم ، وتوهم الناس بأن العلم هو الديانة لذلك يقول :

« وكان الباعث على هذا القصد (هو) وهم الكثير من الناس أن العلم خاص بعلم الديانة فقط . بل العلم في اللغـــة هو ادراك الشيء على ما هو به ، وهو مرادف للمعـــــــرفة في حق البشر ، والمعرفة صادقة على الكتابة والقراءة وحفظ اللغـــات والفلاحة ، والصناعة ، والحرف ، والتجـــارة وغيرها ، فيرجع كل ذلك الى إدراك الشيء على ما هو عليه وهو العلم على الاطلاق » .

هكذا يفسر العلم الذين يحددون مفهوم العلم بعلم الديانة . ثم يستمر في هذا الاطار تحبيبا وترغيبا للناس لكي يتعلموا ويتفهموا ويسعوا الى طلب العلم في كل مكان فيعطي أدلة ويستشهد بآيات بينات من القرآن الكريم .. ومن الأحاديث النبوية فيقول :

« بيان فضل العـلم والتعلم والتعليم ، فنسوا هذه من النقل والآثار والفعل . أما من القرآن عز وجل « قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون . وقوله خلق الانسان علمه البيــان » . وقوله صلعم : طلب العلم فريضـــة على كل مسلم ، وقال اطلبوا العلم ولو بالصين ، مع أن أهله وثنيون .

ويفهم من قول السيد محمـــود بن الشيخ على « مع أن أهله وثنيون » أنه كان يحس ويشعر بل يلمس معارضـــة الجزائريين لارسال أبنائهم للتعلم في مدارس يشرف عليها فرنسيون ولو كانت تدرس فيها لغتهم وهي لغة القرآن ، فهو بقوله هذا يريد أن يهون عليهم هذه انشكوى ، ويقلل من تحفظهم من الفرنسيين ومن لغتهم وعلومهم . ولذلك يستمر في تقـديم الأدلة والشهود على أن طلب العلم ولو ممن ليسوا على دينهم جائز ومسموح بل مطلوب وواجب على كل مسلمة ومسلم . ويجـد في الأحاديث النبوية الأمثلة التي تقنع أيا كان فيأتي بها قائلا :

وقال ان الحكمة تزيد الشريف شرفا وترفع الملوك حتى يدركوا مدارك الملوك .

وقال قد أوحى الله الى ابراهيم : يا ابراهيم انى عليم أحب كل علم .

وقال عيسى عليه السلام : من علم وعمل وعلم فذلك يدعى عظيما فى ملكوت السماوات .

وهكذا يملا عمودين كاملين من الأمثلة ، تارة عن القرآن ، وأخرى عن محمد ، وثالثة عن عيسى ، ورابعة عن ابراهيم عليه السلام ، وخامسة عن سليمان ، فالامام على ، فالصحابة ، فالامام الشافعى ، فأمثال الحسن البصرى .. فأقوال حكماء الفرس ، فوصايا الملك النعمان لابنه لكى يزاحم العلماء بركبته .. حتى يقول : « ان المطلوب مما ذكرته هو معرفة فضيلة العلم ونفاسته » ..

وبعد ذلك يعطى للعلم أربعة مفاهيم باستثناء العلوم الدينية فيقول :

(يدخل فيما يطلب (للعلم) كالكتابة واللغة والطب والحساب والهندسة والتنجيم والسياسة ونحوها . وقد قيل أن أصول الدنيا أربعة : الزراعة للمطعم ، والحياكة للملبس ، والبناء للمسكن ، والسياسة للتأليف والاجتماع والتعاون على أسباب المعيشة ، وكل واحدة من هذه الصناعة تخصصها صناعات لتهيئة آلاتها . أنظر حكمة ترتيب هذه الكلمات الأربع على النسق المذكور) ..

لكن كل هذا لا يلفت النظر لشىء غير اعتيادى اذا توقفنا عند هذا الحد من كتابه السيد محمود بن الشيخ على ، ولا نفهم من شخصيته شيئا استثنائيا الا أنه أستاذ معلم يحاول اقناع الناس بارسال أولادهم الى التعلم ، وهذا شىء عادى وبسيط فهو شىء من رسالة كل شيخ معلم .

لكننا نفهم شخصية السيد محمود بن الشيخ ، على حقيقتها عندما نقرأ له الجزء الثانى من الموضوع (وهو صلب الموضوع) رغم طول المقدمة التى حاول الكاتب أن يظهر لقرائه فيها أهمية العلم كمعلم كان يحبب للناس ارسال أبنائهم الى المدارس .

وفى الجزء الثانى من هذا الموضوع تظهر لنا شخصية السيد محمود بن الشيخ على ، شخصية عصرية واسعة الاطلاع على الأمور العلمية والسياسية وتقدم النهضة الأوربية وما يجرى فى العالم حينذاك شرقا وغربا . فكان عالما بما كانت تسعى اليه الشعوب العربية الاسلامية من نهضة علمية ثقافية ، والسعى الى الوصول بركب الحضارة العربية وذلك بارسالها البعثات الطلابية لحفظ العلوم والثقافات الأوروبية ، وكان يعلم ما للغة الفرنسية من دور فى دفع الحضارة الغربية ، وكان يعلم ما وصلت اليه باريس فى قمة التقدم والرقى الثقافى والعلمى . كل هذا نعرفه فى السيد محمود بن الشيخ على مما كتبه فى الجزء الثانى من مقاله الذى طلب فيه من الجزائريين أن يعلموا أبناءهم اللغة الفرنسية ، وهم فى ديارهم وهى بجوارهم ، تلك اللغة التى أرسل محمد على باشا الكبير طلابا لتعلمها فى فرنسا بعيدين عن ديارهم . ثم يستشهد بالخلفاء الراشدين وأمراء الاندلس الذين ترجموا علوم اللغات الكثيرة للعربية ، وجلبوا العلماء الأجانب لتعليمها والترجمة عنها حتى أصبحوا فى قمة المجد والرقى والحضارة .

لقد كان السيد محمود بن الشيخ على من دعاة النهضة فى البلاد واستعمال اللغة الفرنسية مطية للوصول الى تحقيقها ، خاصة وأن الجزائريين يحتكون صباحا ومساء باللغة الفرنسية وبالأوروبيين أبناء تلك الحضارة . فأستمع اليه قبل ان يدخل فى شرح هذه الوسائل والامكانيات التى تمكن الجزائريين من النهوض نهضة علمية كبيرة يقول :

« لنرجع الى المطلوب . فكل علم مقصـده مصلحة دنيوية أو أخروية فهو محمود قطعا . فاذا نقرر هذا فلابد أن نعرف أيضـا أن ما يتوقف عليه الشيء فهو مطلوب أيضا ، لأنه صار كالمقـدمة له ، والمبـادىء قبل الأصول ، فاذا تنبهت لهذا التدرج علمت انه يجب على كل واحـد أن يتعلم ما هو جار فى أحواله أو ما يتوقع وقوعه » ، انظر لهذا الانتقال الممتع الذى يستعمله السيد محمود وكأنه فى حوار مع مواطن جزائرى يريد اقناعه بالحجـة والبرهان فيقـول له :

كيف وقد صارت اللغة الفرنسية وكتابتهـا فى هذه الأعصر وسيلة لا غنى عنها فى العلوم على اختلافهـا ، وسـائر الصنائع وفنونهـا ، خصوصا الطب والهندسة والحسـاب والتنجيم والجغرافية والطبيعيات والرياضيات وما يتفرع عنهـا ولا يتأتى لانسـان أن ينكر براعة أهل فرنسـا فى جميع هذه الفنون مع صناعات غربية جديدة اخترعتها ، فلا يمكن الوصول الى ما ذكرنا الا باللغة الفرنسية وكتابتها لعدم وجود اللفظ العربى لمسمياتها .

وبعد أن يضرب المثل بما فعل المأمون بن هارون الرشـيد من ترجمته لعلوم الفلك الى العربيـة من جراء حفظ المسلمين تلك اللغـات ، وكيف فعل جعفر المتوكل لترجمـة الكتب اليونانية ، وكذلك كيف فعل عبد الرحمن النـاصر الأندلسى فى ترجمة الكتب العديدة خدمة للعلم والنهضة والتقدم . يرجع الى الحـديث عن عصره قائلا :

فمن تأمل أحوال العلوم والفنون الأدبية والصناعات الاختراعية فى هذا العصر وجد أن المعارف البشرية قد انتشرت وبلغت أوجها بمدينة باريس ، وانه لا يوجـد من حكماء الأفرنج من يضـاهى حكمـاءها . الم تران محمـد على باشا صاحب مصر كيف تفطن لفائدة اللغة الفرنسية وكتابتها فتسبب فى احضار بعض علمـاء

الافرنج لبلاده ما أمكنه احضاره ، وبعث تلاميذ ما أمكنة بعثـه فى عدد يزيد على الأربعين نفسـا من أعيان مصر الى فرنسـا عام ١٨٢٤م لأن علماءها أعظم من غيرهم فى العلوم الحكميـة (ف) كيف (بنا) (١) نحن المقيمون معهم والمحتاجون لمخالطتهم ومعاملتهم وخدماتهم ، حيث أننا تحت حمايتهم ولا نفقه لسانهم . فهذا هو غاية الحماقة وشدة البلادة (٢) .

وفى الجزء الثالث والاخير أو العمود الرابع من المقال يرجـع السيد محمود بن الشيخ على ، فيذكر فوائد التعليم والتعـلم فى الصغر ، وما على الآباء من واجبات نحو ابنائهم ، ثم يأتى بأمثـلة كثيرة لصحابة الرسول صلى الله عليه وسلم .

وقد كانت خاتمة المقال طويلة جدا مثل المقدمة . وفى الاخـير وقع المقال باسمه ، هكذا : حرره محمود بن الشيخ على .

وفى مقال آخر تحدث السيد محمود بن الشيخ على عن القانون الذى أصدره الفرنسيون لادارة البلاد وحكمها واظهر فوائد القوانين التى تسير عليها الممالك الاوروبية ، وكيف تتقدم الشعوب بهـا حضاريا واجتماعيا وسياسيا .

وكان فى مقاله هذا معلقا ومقارنا لما تناله الشعوب من فائدة القوانين ، وما يناله الجزائريون من فوائد التمدن اذا امتثلوا الى هذا القانون الصادر فى ٣٠ مايو عام ١٨٦٨ .

وكان هذا القانون يهدف الى تنظيم الاعراش وتعيين الجماعات على راسها وتكلف بتسيير أمورها تحت اشراف القياد والشيوخ .

---

(١) الحروف الموضوعة بين قوسين من وضعنا زيادة فى فهم معنى الجملة .

(٢) جريدة « المبشر » عدد ٥٥٢ لشهر يوليو ـ حزيران عام ١٨٦٧ .

ولما اطلع السيد محمود بن الشيخ على على نص هذا القرار ـ الذى نشر بجريدة المبشر عدد ٦١٣ لشهر سبتمبر عام ١٨٦٨ ـ ظهر له منه طريق التمدن والعمران والتعاون على البر والاحسان وسد ذريعة الجور والعدوان مما يسرى لسكان الوطن من التطبع بقواعد الاوروبيين .

ان شأن هذا القانون هو الترتيب والتنظيم للوطن الجزائرى بجعل جماعات فى الاعراش التى وقع التجديد والتقسيم فيها ، وما سيجرى عليه هذا العمل فينتخب من أعيان كل وطن جماعة تقوم بالتصرف فى دائرتها ، وعلى نظرهم انفاق الدراهم المضافة لمداخل ذلك الوطن فى المصالح العمومية مثل المدارس والمساجد والجسور ومآوى الفقراء وغير ذلك .

وبعد ان يمدح هذا القانون وصاحبه أى واضعه يحث الناس على العمل به حتى تصير البلاد مثل ما هى عليه الممالك الاوروبية التى يقول فيها : فانك لا تكاد ترى احدا منهم أميا ولا عاريا من فوائد التمدن حاليا ، فاستثارت غيرتهم لعمران أوطانهم ، وحميتهم وهمتهم فى اكتساب الفضائل النفسية ، والتخلى عن سفاسف الأخلاق المزرية بالعرض والمروءة . واشتدت عزائمهم لابتغاء أسباب الثروة من اتقان الصنائع وادارة البضائع ، فأتوا بيوت اغراضهم من أبوابها ، وتوصلوا الى المسببات باسبابها ، وبلغوا فى العمران الى المبلغ المشهود ولا جرم ان يصبح ذات يوم هذا (الاقليم غنيا عن غيره ..) .

فهو كما تراه ـ من هذه النماذج التى قدمناها له ـ رجل طموح الى التطور والتقدم والوصول بركب الحضارة . وهو امام بالمدرسة السلطانية بالجزائر العاصمة ، وكان من الممكن ان تتغلب عليه أفكار المحافظين على القديم والتزمت فى حصن التقاليد ، ولكنه رغم

ذلك كان من المتطلعين الى تلك النهضة التى كانت تزحف على العالم أجمع . ورأى فى تلك القوانين التى اصدرها الماريشال دوماكماهون Demacmahon. بردا وسلاما على مواطنيه وخطوة فى سبيل التقدم .

ولقد كان اماما بالمدرسة السلطانية بالجزائر ، والغالب على الظن انه يلم الماما كبيرا باللغة الفرنسية ولا يستبعد ان يكون خريج نفس المدرسة (ليسى) الجزائر .

واخيرا انه لم يسعدنا الحظ بالعثور على تاريخ ميلاده ولا تاريخ وفاته .

محمد البدوى أول جزائرى أسس منظمة سياسية :

محمد البدوى هو ابن السيد أحمد البدوى الذى سبق لنا الحديث عنه . ولد محمد فى الجزائر العاصمة لم يسعدنا الحظ بمعرفة تاريخ ميلاده ، تلقى تعليمه الابتدائى فى العاصمة ، ثم التحق فى تعليمه العالى (بالكوليج) العربى College بالنسبة للغة العربية و (بليسى) الجزائر Lycée بالنسبة للغة الفرنسية (١)

وبعد تخرجه من هاتين المدرستين الكبيرتين اشتغل ـ كأبيه ـ بالصحافة .

وكما رأينا السيد أحمد البدوى وطنيا مجاهدا فى صفوف الامير عبد القادر ، ثم مناضلا ثقافيا ، فلا غرابة فى أن يتبع السيد محمد البدوى أباه فى المنهج والعقيدة ، وان يكون مناضلا وطنيا مثل والده .

---

(١) انظر : كتاب المسلمين الفرنسيين بشمال افريقيا لاسماعيل حامد .

اختار السيد محمد بن احمد البدوى الصحافة مهنة ، لأنه كان يرى فيها سلاحا قويا ، وميدانا فسيحا يستطيع النضال فى ارجائه ولم يحترف مهنة القضاء ولا الترجمة ولا مهنة امام أو مدرس ، وذلك لأنه كان يعتقد بدون ادنى شك بأن هذه المهن كانت كلها تخدم الوجود الفرنسى فى الجزائر . لهذا على حسب ما يبدو اختار مهنة حرة ، تسمح له بالتحرك والنشاط دون أن تعترضه القيود ، فكانت مهنة الصحافة .

وحتى فى مهنة الصحافة لم يرتبط بالصحف الرسمية أو الشبه الرسمية ، فاختار العمل والتعامل مع الصحف المستقلة مثل (الأخبار) Akbar ، أو الصحف الديمقراطية مثل : صحيفة الراديكالى الجزائرى Leradical – ان صح تسميتها ديمقراطية – وعلى كل فان لم تكن ديمقراطية فانها لم تكن حكومية . كان الشاب محمد البدوى محررا بهاتين الجريدتين . ولقد كان متسع المعرفة ، متشبعا بثقافة عالية . وأوتى من فصاحة اللسان الشيء الكثير ، حتى انه كان خطيبا سياسيا بليغا جدليا كبيرا (١) ، وما كادت تصل سنة ١٨٧٠ – ١٨٧١ حتى توصل الى تكوين منظمة سياسية صحبة جماعة من المثقفين . وهى اول منظمة سياسية جزائرية تكونت فى الجزائر منذ ان وطئت اقدام الفرنسيين ارض الجزائر .

ولقد كان محمد البدوى يتتبع الاحداث والتطورات السياسية داخليا وخارجيا ، فداخليا لم يكن يجهل الانتفاضات التى وقعت فى العشر سنوات (١٨٦٠ – ١٨٧٠) ، وخاصة منها الخيالة فى « سوق اهراس » . ولم تكن خطب رزوق السوقهراسى تخفى عليه ، تلك

---

(١) انظر اسماعيل حامد .

الخطب التى كان ينادى فيها بالجهاد والثورة على الفرنسيين ، ويعد الناس بأن محيى الدين بن الأمير عبد القادر يزحف من ناحية نفطة .. والبلاد العربية من ورائنا .

كما لم تكن تخفى على الصحفى محمد البدوى نتائج مؤتمر آقبو ، والنشاطات الوطنية التى كانت الزواية الرحمانية ومحمد المقرانى يقومان بها عبر تراب الوطن ، وخاصة منها مقاطعة الشرق الجزائرى التى كانت تشمل مساحة عمالة قسنطينة سابقا (١) .

اما فى الميدان الخارجى فلم يكن محمد البدوى ، وهو الصحفى اللامع والجدالى الكبير والسياسى الماهر ، يجهل تطور الاحداث فى أوروبا ، وخاصة منها الحرب الفرنسية الالمانية ، وثورة (الكومون) البروليتارية فى باريس وانهزام نابوليون والجيوش الفرنسية أمام الألمان .

كل هذه الاحداث كان الصحفى محمد البدوى وجماعته يتتبعون اخبارها ، ويحللونها ويقرأون لكل حدث حسابا من ذلك ، فما كادت ثورة الكرمون الباريسية تعلن فى العاصمة الفرنسية حتى بادر السيد محمد البدوى الى الاعلان عن منظمته ، والمطالبة بالاعتراف باستقلال الجزائر ، وشرع يحرض الجماهير التى خرجت الى الشوارع للتظاهر ومناصرة لثورة باريس .

ولقد شوهد فى شوارع العاصمة يخطب فى الجماهير ، تارة بالبيان العربى ، وتارة أخرى باللغة الفرنسية وفى خطبه تلك كان يطالب بالاعتراف بحق الجزائر فى الاستقلال .

وبعد فشل ثورة الكومون فى باريس والتى تعتبر أول ثورة بروليتارية فى العالم ، فشلت حركة السيد محمد البدوى ، وألقت

(١) ثورة أولاد سيدى الشيخ ، وتحرك اعراش الوادى الكبير ، وتمرد جنود (السبايبس) .

سلطات الاحتلال عليه القبض ، وحاكمته أمام محكمة عسكرية ، حكمت عليه بسبع سنوات سجنا .

ومن الملاحظ ان حركة الصحفى السيد محمد البدوى هذه لم تكن متغلغلة فى اوساط العمال والطبقة الكادحة ، بل كانت منظمة لا يتعدى نطاقها الأوساط الثقافية حينذاك ، وانها لم تقدر جماهير العاصمة الا فى مرحلة الهيجـــان والفوضى التى وقعت فى أوساط الاوروبيين بعاصمتنا اثر انهزام فرنسا فى حرب السبعين وانطلاق ثورة الكومون فى باريس . ولذلك يمكن لنا أن نسميها حركة ثقافية سياسية ، ومع ذلك فان حركته هذه كانت مناصرة لثورة الكومون البروليتارية .

هذا من جهة ، ومن جهة اخرى نرى ان الحركة الثقافية التى ظهرت الى الوجود منذ زيارة نابوليون الى الجزائر فى مطلع الستينات قد قضى عليها بالقضاء على ثورة المقرانى وحركة الصحفى محمد البدوى . ومن هذا التاريخ ١٨٧١ دخلت الجزائر فى مرحلة من الركود والانعزال ، لتضميد الجراح والاستعداد لخوض المعـــارك من جديد . واستغرقت هذه المرحلة اكثر من ربع قرن اختار فيها الشعب الجزائرى اسلوبا آخر من المقاومة هو اسلوب الانعزال على نفسه محافظا بذلك على شخصيته وكيانه الذاتى .

استغرقت مرحلة الركود الثقافى أكثر من ربع قرن ، وحتى المقاومة المسلحة الرسمية والجماهيرية انتهت هى الأخرى بفشل ثورة المقرانى . رغم وجود انتفاضات مسلحة اخرى وقعت هنـــا وهناك ، الا انها كانت منعزلة وآخرها ثورة بلازمـــــة قرب باتنه سنة ١٩١٦ .

أسلوبه فى التحرير :

لم أعثر على أى شىء من مقالاته يمكننا من معرفة اسلوبه فى التعبير والتحرير .. ولم اعرف فيما اذا ألف بعض الكتب .

الفصل الثامن

أبو القاسم محمد الحفناوى

نشأته

أبو القاسم الصحفى

أبو القاسم المؤلف

النماذج

من أخبار السينغال

فى الأقتصاد والتجارة

من التجارة الى العلم والعلماء

شأن الكلب لدى اطباء العرب

تركيب الهواء

محمد مصطفى خوجة

احياء الأرض بالأشجار

فى الربع الأخير من القرن التاسع عشر :

●● قال فيه الاستاذ سعد الدين بن الشنب :

فى الربع الاخير من القرن الماضى . وهو الذى ظهرت فيه بذور النهضة الثقافية فى بلادنا ظهـــر فى عالم الصحافة فوج آخر من الصحافيين الجزائريين ــ كتاب ومترجمين ــ واستمر هذا الفوج يمتهن الصحافة والتدريس طوال عشرات السنين ، خلال سنوات الربع الأخير من القرن الماضى وأثناء مطلع هذا القرن .

وكان أبرز هؤلاء الكتاب السادة : أبو القاسم محمد حفناوى بن الشيخ ، ومحمد بن مصطفى ، واسماعيل حميت (حميـــد ؟) ومصطفى الشرشالى ، والعربى فخار ، والعلامـــة بن الشنب ، وآخرون .. وكلهم كانوا ارباب اقـــلام سيالة ، وكان معظمهم مزدوجى اللغة .

السيد أبو القاسم محمد الحفناوى بن الشيخ :

من هؤلاء الكتاب نتحدث فى هذا الفصل عن صحفى شـــهير هو السيد ابو القاسم محمد حفناوى الذى عرفه السيد سعد الدين بن شنب بالسطور التالية :

((كان رحمه الله كلفا بالعلوم على مختلف انواعهـــا من دينية ودنياوية . وكان كاتبا بليغا ، وشاعرا مجيـــدا . كثير التدقيق والتنسيق ذاكرا للتاريخ باحثا محققا)) .

والسيد أبو القاسم محمد الحفناوى بن الشيخ هو الجزائرى الذى عاشر الصحافة مدة تفوق الخمسين سنة ، وحمل القلم أكثر من سبعين عاما .

كان خلالها صحافيا واستاذا واماما ثم مفتيا .

نشـــأته :

ولد بقرية الديس بالقرب من مدينة (بوسعادة) سنة ١٢٦٩ هـ الموافق لسنة ١٨٥٢ ميلادية .

وارتحل لطلب العلم والمعرفة فى بداية شبابه فالتحق بـ « زاوية الشيخ بن داود » بمنطقة جرجرة . وبعد مدة قضاها هناك ارتحل مرة ثانية فى طلب العلم الى الجنوب . وحط رحاله فى «زاويةطولقة» ليعيش ثانية مع الطلبة الوافدين اليها من جهات عديدة من الوطن . وهمه من هذه الرحلات هو المزيد من كسب المعرفة والثقافة فىالدين والتبحر فى العلوم .

ومن زاوية طولقة ارتحل طالبـا « زاوية سـيدى الهامل » بالقرب من مدينة بوسعادة . ومن المعتقد أن مرحلة تعليمه النهائى كانت فى زاوية سيدى الهامل .

أبو القاسم محمد الحفناوى الصحفى :

وفى عام ١٨٨٤ ــ وقد بلغ من العمر ٣٢ سنة ــ التحق السيد أبو القاســـم محمد الحفناوى بن الشـيخ (١) بالجزائر العاصمة وانضم الى جريدة « المبشر » الرسمية العربية ــ التى كانت حتى هذا التاريخ الجريدة العربية الوحيدة فى البلاد ــ فشارك أسرتها فى التحرير وفى التصحيح .

ومن هذا التاريخ انطلق السيد الحفنـاوى يجول فى عالم الصحافة يكتب (ويترجم ؟) ويصحح ويعلق . فى مجالات عديدة من مجالات الاعلام . فكتب الأخبار عن دمشق الشام (٢) والسينغال

---

(١) بن الشنب « مجلة كلية الاداب » العدد الاول السنة الاولى ١٩٦٤ .
(٢) المبشر ١٢ فبراير ١٨٨٧ .

بأفريقيا السوداء الغربية ، وكتب عن « داء الكلب لدى أطباء العرب » (١) وكتب « تركيب الهواء » (٢) وتركيب الماء (٣) والانسان والحيوانات المتساكنة (٤) وهلم جرا » .

ان ما نشره السيد حنفاوى على صفحات « المبشر » من مقالات ودراسات سواء كان هو كاتبها أو ناقلها من الفرنسية لتملأ المجلدات . وعلى كل سنتعرض لها بالبحث والتحليل وتقديم نماذج منها تمكن القارىء من أخذ فكرة عن هذا الصحافى الجزائرى الكبير .

واستمر السيد الحفناوى من هذا التاريخ (١٨٨٤) وهو يعيش فى عالم الصحافة ويرافق جريدة « المبشر » مدة ثلاثة وأربعين عاما ، أى منذ عام ١٨٨٤ الى عام ١٩٢٧ عندما أدمجت هذه الجريدة مع « النشرة الرسمية » وصدرت مكانها « الجريدة الرسمية الجزائرية » .

وبتوقف هذه الجريدة عن الصدور توقف السيد الحنفاوى عن النشاط الصحافى .

وكان بالاضافة الى نشاطه الصحافى مدرسا بالجامع الكبير (٥) بالعاصمة وقد عين فى هذا المنصب كأستاذ ابتدائى من عام ١٨٩٧

---

(١) المبشر ٢٦ مارس ـ آذار ١٨٨٧ .

(٢) المبشر ١١ أغسطس ـ آب ١٨٨٨ .

(٣) المبشر ١٦ فبراير ـ شباط ١٨٨٩ .

(٤) المبشر ٣٠ مايو ـ آيار ١٨٩١ .

(٥) ابن الشنب « النهضة العربية فى الجزائر » فى « مجلة كلية الاداب » هامش ص ٤٢ .

وكان قد مرت عليه ثلاث عشرة سنة فى عالم الصحافة الواسع الارجاء .

أبو القاسم حفناوى المؤلف :

وبالاضافة الى الصحافة والتدريس كان السيد الحفناوى من كبار الباحثين العرب فى مطلع هذا القرن بحيث انكب قبل نهاية القرن الماضى وخلال مطلع القرن الحالى ـ على مطالعة المخطوطات العربية القديمة المهملة ، ودراستها بعمق وتدقيق حيث كان يهوى التاريخ والعلوم على مختلف أنواعها . وقد قال فيه المرحوم الأستاذ سعد الدين بن الشنب :

ولقد كانت نتيجة دراسته لمخطوطات أجدادنا القديمة ـ نصرا للنهضة الحديثة ، حيث ألف كتابه المشهور « تعريف الخلف برجال السلف » عام ١٩٠٦ . ولا شك فى أن السيد أبو القاسم حفناوى كان من العلماء الجزائريين المتأثرين بالنهضة العربية فى المشرق العربى والتى لقيت ترحيبا كبيرا فى الجزائر ، وانه أراد أن يشارك فى دفع عجلة النهضة العربية الى الأمام ، فاهتم باحياء التراث العربى القديم الذى حاول المستعمرون القضاء عليه بكل الوسائل .

والأستاذ أبو القاسم محمد حفناوى كان بحكم وظيفته (صحافيا فى جريدة « المبشر » وأستاذا مدرسا فى الجامع الكبير) فى خدمة (الوظيف) حكومة الولاية العامة .

ولكن هذه الوظيفة لم تحل بينه وبين مسايرة النهضة العربية حينذاك . خاصة اذا عرفنا أن كتابه ظهر الى الوجود بعد زيارة الداعية ألاسلامى الكبير الامام محمد عبده للجزائر عام ١٩٠٣ .

يبدو أن السيد أبو القاسم محمد الحفناوى وهو الصحفى المطلع على تطور الأحداث فى الشرق وفى الغرب كان يريد بوضعه لكتاب « تعريف الخلف برجال السلف » مسايرة الركب بعد أن

تأثر بالنهضة . ويذكر الجزائريين بأن يتيقنوا بأن أمتهم كانت فى الزمان الغابر أمة حية متقدمة ، لا تقل ثقافة وعلما وحضارة عن غيرها من الأمم . وبالتالى فانه كان يريد أن يشعرها بأنه لا يوجد المستحيل أمامهم فى هذا العصر لكى يخلقوا ويكونوا ما كان لهم فى العصور الغابرة ، بل عليهم يتوقف كل شىء للحصول على قسط وافر من العلوم والحضارة والتقدم . من ذلك انه خاطب الجزائريين حينذاك فى مقدمة كتابه فقال لهم بالحرف الواحد :

« الظاهر أن القطر الجزائرى قد اجتهد قديما فى طلب العلم بجميع أسبابه واتاه من سائر أبوابه ووقف معقوله ومنقوله فتمكن من أصوله . وكان لعلوم وقته جامعا . ولراياته رافعا . مثل أخويه المغربيين الأقصى والأدنى ، فظهر فى الاقاليم بدوره ، واشتهر فى التاريخ قدره ، بعلماء بنوا تآليفهم على أركان التحقيق ، وحصنوها بأسوار التدقيق فكانوا فى عصرهم نجوم اهتداء ، وأئمة اقتداء ، ولكن طواهم واضربهم فلك الانقلاب فى مغارب الافول فذهبوا ولسان حالهم يقول : (١)

تلك آثارنا تدل علينا فأنظروا بعدنا الى الآثار « ففى مخاطبته هذه للجزائريين نغمة من نغمات النهضة التى تحرض على التعليم ونشر العلوم فهو يقول :

ان القطر الجزائرى كان فى ماضيه يسعى لطلب العلم والحصول عليه بجميع الوسائل، وتحصل على ما كان منه معقولا ومنقولا ، وكأنه يتساءل لم لا تعمل الجزائر الحديثة مثل ما عملت الجزائر القديمة .

---

(١) مقدمة كتاب « تعريف الخلف برجال السلف » أشار اليها المرحوم سعد الدين بن الشنب فى مجلة الاداب . العدد الاول السنة الاولى ١٩٦٤ .

ثم يقول لهم نيابة عن الأجداد الأوائل فى بيت شعر رقيق
ها هى آثارنا تدل علينا وعلى أفعالنا فأنظروا اليوم أنتم بعدنا
الى هذه الآثار .

هكذا الكب الأستاذ أبو القاسم محمد الحفناوى بن الشيخ على البحث والدراسة ومطالعة كتب التاريخ المطبوعة منها والمخطوطة ، ثم استعمل فى تأليفه نفس أسلوب القدامى فى التأليف والتدوين ، لذلك رأيناه فى كتابه « تعريف الخلف برجال السلف » يجمع الأخبار من الكتب التاريخية ويرتبها دون تعليق وقد قال فيه المرحوم سعد الدين بن الشنب : « ذهب الحفناوى مذهب المؤرخين الأولين الذين كانوا يجعلون أكبر همهم نقل الأخبار فقط (١) وعليه لم يراع قواعد البحث الحديثة » .

ومهما كان أسلوب الصحفى أبو القاسم الحفناوى بعيدا عن أسلوب قواعد البحث الحديث فانه قد أكد لنا وجود بذور نهضة فى الجزائر كانت مسايرة للنهضة العربية فى مشرقنا العربى ، ومتأثرة بها الى درجة كبيرة .

ان الصحفى السيد أبو القاسم محمد الحفناوى لم يكن يعيش وحده منعزلا عما يدور حوله من أحداث فى المشرق والمغرب ، فهو بحكم مهنته كصحفى كان يعيش فى وسط الاخبار والأحداث : وهو بوصفه أستاذا كان يعيش من جهة أخرى فى وسط علمى متفتح على التطور والتقدم ، هذا الوسط الذى بدأ يحس ويشعر بالنهضة الفكرية والصناعية فى أوروبا ، ويشعر بالنهضة الفكرية فى العالم العربى ، تلك النهضة التى انطلقت فى المشرق والتى كانت الصحف العربية تحمل لواءها .

---

(١) نفس المصدر . أى مجلة كلية الاداب .

ولقد كانت أصداؤها تصل الى مســامع علماء الجزائر ومثقفيها . فبادروا الى تأسيس النوادى والجمعيات الخيرية على غرار ما كان موجودا من نوادى وجمعيات فى المشرق والتى كانت تتناقل أفكار السيد جمال الدين الأفغانى الذى كان قد أسس منذ سنوات (أى فى عام ١٨٨٢) ـ « جمعية العروة الوثقى » بسنتين دخل الحفناوى عالم الصحافة . وبعد تأسيس الجمعية بسبع ســنوات ظهرت الى الوجود فى مصر جريدة « المؤيد » لصاحبها الشيخ على يوسف ، وكان ذلك فى شهر ديسمبر ـ كانون الأول ـ عام ١٨٨٩ ، وشرعت جريدة المؤيد تدعو الى اليقظة العامة ، والاصلاح الشامل . ومحاربة الفساد الســائد المنتشر بين المسلمين والعرب ، وتدعو الى حب الوطن والحرية والثورة على الطغيان والاستبداد الاستعمارى (١) .

وفى هذا الأثناء تبعت خطى « المؤيد » صحف أخرى ظهرت الى الوجود . مثل صحيفة « المنار » لصاحبها الشيخ رشيد رضا تلميذ الامام محمد عبده التى ظهرت الى الوجود ابتداء من عام ١٨٩٨ ، وصحيفة «مصباح الشرق» لمؤسسها السيد ابراهيم المويلحى حيث انطلقت هى الأخرى ابتـــداء من عام ١٨٩٧ ـ ١٨٩٨ . ولقد كانت هذه الصحف تأتى الى القطر الجزائرى من المشرق العربى عن طريق تونس ـ خاصة ـ التى كانت الرقابة فيها أخف وطأة .

لقد كانت هذه الصحف بالنسبة للصحفى الجزائرى السيد الحفناوى وللعرب جميعا منــارا يضىء لهم الطريق . فدفع بهم واجبهم للقيام بالتــأليف والتــدريس ، لذلك كثر البحث عن

(١) كانت هذه الجريدة العربية فى تلك الايام الصحيفة الوحيــدة التى تعبر عن أمانى وآمال الوطنيين فى البلاد العربية والاسلامية وتدافع عن المسلمين فى العالم .

المخطوطات القديمة التى بقيت خافيــة على الأعداء وبعيــدة عن الأيدى الآثمة ، فراجعوها ونشروها .

ومن ذلك نرى سلسلة من الكتب ظهـــرت الى الوجود فى الجزائر ما بين سنتى ١٩٠٤ و ١٩١٠ . فكان منها اثنـــان فى التاريخ ، واثنان فى الرحلات .

وكان أشهر من كتب فيها الداعية الاسلامى الشيخ محمــد عبده وسعد زغلول وقاسم أمين وابراهيم المويلحى صاحب جريدة « مصباح الشرق » والوطنى الشاب مصطفى كامل .

* * *

ألف الحفناوى رسائل أراد منها لفت أنظار مواطنيه الى منافع بعض اكتشافات العلم الغربى الحديث ، ولا شـــك انه اقتبس مضمون تلك الرسائل فى غالب الأحيان من كتب فرنسية كان يترجمها له موظفو الولاية العامة ترجمة حرفيــة فيلبسها الحفناوى ثوبا عربيا ..

نظرا لهذا كله نقول : ان الغلب الظن هو أن السيد الحفناوى كان يعرف الفرنسية أو على الأقل يعرف قراءتها .

وبعد هذا الاستطراد الذى فرض نفسه نقدم النماذج التالية باختصــــار :

النمـــاذج :

فى يوم السبت ٨ أكتوبر (تشرين الاول) عام ١٨٨٧ كتب السيد أبو القاسم حفناوى مقالا طويلا غطى ثلاثة أرباع الصفحة ــ صفحة جريدة « المبشر » عدد ١٨٩٠ ــ وفى هذا المقال علق على كتاب ظهر فى تلك الأيام الأحد الجزائريين المثقفين باللسانين العربى

والفرنسي وهو السيد أبو القاسم بن سديرة الذى كان مدرسا بالمدرسة العليا للآداب على حد قول السيد الحفناوى ، وكان كتاب بن سديرة وضع فى دراسة « اللغة البربرية القديمة فى القبائل الكبرى » (١) .

ومدح السيد الحفناوى صاحب هذا الكتاب مدحا كبيرا وقال عنه « انه مطلع على كثير من خفايا العلوم » وقد استعمل فى أسلوب تحريره السجع بحيث نجد فى مقدمة المقالة التى قال فيها :

« قد سمح لنا الدهر فى هذه الأيام باشراق باهر ، من زواهر فلكه مرورا ، فاقتنت الأحداق من بهجته ما يغنيها سرورا . وتنعمت بازدهاره الأنظار ، وتمنعت باقتباس سناه الأفكار .

« فاننا قد اطلعنا فيما قرب من الأيام على تأليف لطيف حجما ، وعذب فهما . تناهز صفحاته ٧٠ عددا جمعت من تفكهات الأفئدة .. »

وهكذا استرسل فى مدح الكتاب وصاحب الكتاب على طول المقال .

والجدير بالذكر ان السيد أبو القاسم بن سديرة كان من العلماء الجزائريين المتعاونيين المستسلمين للادارة الفرنسية الذين أثرت فيهم الأفكار الاستعمارية الغربية فصاروا ينظرون الى كل شيء فى بلادهم بعين الاحتقار ويمجدون كل شيء ناتج عن الحضارة والثقافة الفرنسية . وبكلمة وجيزة فان احتكاكهم بالثقافة الفرنسية جعلهم يتأثرون تأثرا كبيرا بمحاسنها ، وخلق

---

(١) انظر : حركة النهضة العربية بالجزائر للاستاذ بن الشنب بمجلة كلية الاداب الجزائرية العدد الاول السنة الاولى عام (١٩٦٤) .

فيهم فى نفس الوقت ، مركب نقص لشخصيتهم، فكانوا يضربون الأمثال بالأوروبيين ، فى كل شيء . ومن هؤلاء العلماء المسلمين المتعاونين مع الادارة الفرنسية والمعجبين بثقافة الغرب وتقاليده الشيخ محمد السعيد بن على الشريف الذى سبق الحديث عنه فى بداية هذه الدراسة ، والسيد الأستاذ سليمان الحرائرى التونسى الذى كان هو الآخر من المادحين الشاكرين للفرنسيين . والسيد الحسن بن بريهمات ، وأمثالهم .

من أخبار السينغال :

وفى ٢١ من شهر يناير (كانون الثانى) عام ١٨٨٨ كتب مقدمة لمقال خبرى طويل ، بل لتقرير طويل كان قد بعث به قائد عسكرى فرنسى من بلاد السنغال وشرح فيه هذا الضابط رحلة نهرية قام بها أحد الضباط الفرنسيين الى مدينة « تمبوكتو) ببلاد « مالى » وكيف استقبل أهالى البلاد الزورق وراكبيه (١) .

ويكون هذا التقرير قد ترجم بالولاية العامة ترجمة حرفية وقدم للحفناوى لكى يلبسه ثوبا عربيا بأسلوب جميل . من ذلك انه قال فى مقدمته بالحرف الواحد :

« ريثما كنا أمس . آخذين فى الاعلان بالأخبار الواردة الينا من « كان » اذا بباخرة سينغال أتتنا برسالة بسيطة المقال طويلة الأذيال ، بطيبها سفر الزورق المدعو « نيجر » الى « تمبوكتو » ولم يساعدنا الحال الآن على ادراجها (الرسالة) برمتها لضيق

---

(١) انظر : جريدة المبشر العدد الصادر فى ٢١ يناير ١٨٨٨ .

المجال ، مع انها نافعة مفيدة ، لكنا تحرينا منها الأجدى ذكرا وحررناه . فدونك تسطيره !!

بهذه المقدمة يفيدنا السيد الحفناوى انه كان يتصرف فى تلخيص المواضيع كما يشاء ، فيأخذ منها الأجدى نفعا حسب اعتقاده ، ويلخص الأخبار التى ترد على الجريدة ، وكذلك المقالات العلمية الطويلة .

وبعد المقدمة السابقة لخص « رسالة السينغال » ، أو التقرير الطويل فى أربعة أعمدة فسرد الرحلة ومصاعبها وكيف احتفل طاقم الزورق بالعيد الوطنى الفرنسى (عيد ١٤ يوليو) .

ومن هذه المقدمة نستنتج شيئا آخر أيضا اذ يفيدنا الحفناوى بمعلومات أخرى عن معرفته للفن الصحافى وارتباط الصحافى بالقراء ، فهو مثلا يعتذر للقراء عن عدم نشر الموضوع كاملا على أعمدة الصحيفة نظرا لضيق المكان ، ويؤكد لهم بأنه اختار من « الرسالة » أحسنها فحرره ونشره .

نموذج ثان :

فى نفس المدة تقريبا ، جاء خبر فى رسالة من بلاد السينغال ، عن الحالة الاقتصادية فى المنطقة ، وكانت الأخبار طبعا آنذاك تنتقل بواسطة قوافل التجار والمسافرين أو بواسطة البواخر التى تمخر عباب المحيطات ، وتصل تلك الأخبار ضمن الرسائل الى مقر الجريدة أو الى الولاية العامة بالجزائر على الأصح ، فتحولها هذه الى قاعة تحرير الجريدة وهى معربة ويقوم بصياغتها (١) .

---

(١) انظر : نفس المصدر .

وهكذا جاء فى رسالة من السينغال خبر مفـاده أن سوقا كبيرا قد أسس بالمنطقة . فأخذ السـيد الحفنـاوى الخبر أو الرسالة وحررها كالتالى :

« أوردت لنا البـاخرة الأخيرة من السينغال الأخبـار الآتى ذكرها فى شأن السودان الفرنساوى .

« ان الغلال هذه السنة ربت ونمت ببلاد .. وطفحت فيها وأوتى منها كثيرا الى السوق الذى يعمر يوم الأحـد الأول من كل شـهر . فامتلأ بوارديه وببضائعهم وانهمرت اليه القوافل من أقاصى الأمصار ، كاحواز ممالك « فوتاجالون » و « تمبكتو » و « الأدرار » ولا سيما نواحى « بامبوك » .

ويستخلص أهمية هذا السوق حسب الأخبار التى جاءت بها الرسالة فيقول :

« ان ثلاثين تاجرا من بلاد « مدينـة .. ومن « واكاى » جادين مجتهدين فى اقامة بناءات برسم التجارة فى السوق المشار اليه لأنه لمـا كان محطـة بين ثلاثة أنهـار وفى ملتقى جميع طرق تلك الناحية لاشك انه سيصير ذا شأن عظيم وأمر جسيم » .

ولقد كانت جريدة « المبشر » تهتم بأخبار السينغـال لأن جيوش الغزاة كانت موجودة هناك ، ولذلك نرى السيد الحفناوى يكتب مرارا ، بل يعيد صياغة ما ترجم من مقـالات عن أعمال الجيوش الفرنسية هناك .

فمثلا ، قام بصياغة موضـوع عن أعمال تلك الجيوش فى بلاد السينغال ، وكان هذا الموضوع نقلا عن جـريدة أو مجلة

(الوقت) (١) Le Temp آنذاك . ومن مقاله هذا تفهم ان فرقا من الرماة الجزائريين والصبايحية كانوا قد أرسلوا الى السينغال فى هذا التاريخ (١٨٨٨) يستعملهم المستعمر فى قهر الشعوب الافريقية .

وكالعادة ، وضع السيد الحفناوى اسمه تحت المقال : الحفناوى بن الشيخ . دون الاشارة الى ترجمة ، مع اننا فهمنا من المقدمة بان الموضوع كان مترجما : اذ قال فى مقدمته :

« قد ورد من سان لوى قاعدة السينغال الى ورقة (٢) الطان Temps ما هو آت .

فى الاقتصاد والتجارة

ومن الكتابة عن أخبار السينغال ننتقل مع الحفناوى وهو يكتب عن الاقتصاد فى الجزائر ، وعن التجارة فى المشرق العربى .

كتب فى شهر يناير (كانون الثانى) ١٨٨٨ عن تربية الغنم **والوسائل الناجعة للمحافظة عليها من اخطار الطبيعة .**

ففى كتابته اختار السيد الحفناوى لتربية الأغنام فى أرضنا مناطق الهضاب الصحراوية التى نجد فيها متسعا تمرح فيه وتنتعش ، أما المناطق الشمالية فهى فى نظره ضيقة ولا تسع الغنم للمرح والتجول ومن ذلك يقول :

« الاقطار الصحراوية كصحن الدار والجهات التالية كبيت مغلوق فكيف يتفقان حالا من جانب الاستقرار . فالغنم تحتاج الأراضى المشروحة المتسعة الفضاء اينما ينمو الحشيش الرقيق المغذى .. تنتقل اليه » .

---

(١) هذه المجلة كانت تصدر فى فرنسا وكان انتشارها واسعا .

(٢) جريدة المبشر مجموعة ١٨٨٤ ـ ١٩١٢ .

ويقـول عن المعارضـين المنتقـدين لفكرة تربية الغنـم فى الصـــحراء :

« لعمرى أنهم لفى سكرة الوهم يعمهون » .

وفى ختام مقاله ارشد الناس الى بناء الاصطبلات وتحـدث كذلك عن الحلفـة وصناعتها وكيف كان الاسـبان يصنعون منهـا البســتهم بعد ميلاد المسـيح بقرنين . ثم شرح كيف انقرضت وانقطعت فى بعض النواحى من جنوب وهـران حيث استعملت مكانها الفلاحة . ثم أرشـد الناس الى طريقة فلاحتها وتقليعها وترتيبهـا (١) .

وفى التجـــارة

فى عدد ٢٢ يناير (كانون الثانى) ١٨٨٨ اعاد صياغة تقرير كان قد بعث به قنصل فرنسا فى الدرنة لحكومته وكان هـــذا التقرير يشتمل على صـادرات وواردات التجـارة الغربية مع الخلافة العثمانية ، وهى مضبوطة بالأرقام ، فكانت فرنسا تأتى فى الدرجة الثالثة بعد الانجليز (المانيا) ؟ ونشر هـذا التقرير فى حلقات متسلسلة (٢) .

ولقد فعل نفس الشىء بالنسـبة لتقرير بعث به قنصـل فرنسا فى دمشق الى الحكومة الفرنسية .

وفى هذا التقرير يلاحظ القنصل تقصير التجار الفرنســيين فى تنشـيط التجارة الفرنسية تجاه هـــذه المدينة ورفع كمية الصادرات والواردات بين الشام وفرنسا ، ويلفت نظر المسؤولين الى العناية بهذا الجانب .

---

(١) انظر : جريدة المبشر مطلع يناير ١٨٨٨ .
(٢) انظر : جريدة المبشر العدد الصادر فى ٢٢ يناير ١٨٨٨ .

ولما كان التقرير طويلا فقد قسمه السيد الحفناوى الى حلقات عديدة نشرت بتسلسل .

ومن التجارة الى العلم والعلماء

لقد أدلى الصحافى الحفناوى بدلوه فى كل شىء ثم هو يلخص المقالات الطوال أو الدراسات المركزة عن « تركيب الما » و«تركيب الهواء » وعلم الطب عند العرب .

وهكذا نراه يكتب مقدمة لعرض حال قدمه أحد العلماء فى باريس مادحا للاستاذ الحكيم باستور Pasteur الذى ذاع صيته آنذاك نظرا للاكتشاف الرائع الذى توصل اليه ، وهو اكتشاف دواء لمعالجة مرض الكلب . وفى مقدمة كلمته شرح الحفناوى الخدمات التى قدمها هذا الطبيب الى الانسان فيقول:

« مما يقر العيون ويشرح الصدور اكتشاف السيد باستور على كيفية معالجة داء الكلب حتى غدا بين الأنام أشهر من شهاب. حيث أبدى لذوى الدنيا ما كان وراء حجب لم يسمح لازالتها ، وبقيت منسدلة دونه الى أن قدر المتعالى للانعام باظهاره على يدى هذا العالم المحظى الملاحظ الآن من جهات الدنيا بأسرها السيد باستور .. فلاح للعالمين كالدور يقصده المصابون من كل فج حتى نفر من المسلمين وبلغ كالظمآن الذى اهتدى الى منبع » .

« فها نحن اليوم نفيد قراء صحيفتنا بما تحصل من أعماله حسب ما تبين من عرض حال اصدره حزب علماء فرنسا ، وتلى على جمعية العلوم يوم ٢٤ يناير ١٨٨٧ .

هذا هو أسلوب السيد الحفناوى فى تقديم مواضيعه المترجمة الى قرائه فيبين الغرض منها وما هى فوائدها ثم بعد ذلك يقدم النص المترجم كما جاء به صاحبه .

« شأن الكلب لدى أطباء العرب »

بعد ان كتب عن الحكيم باستور كما سبق ان ذكرنا . نرى السيد الحفناوى بن الشيخ يكتب عن أطباء العرب مدافعا عنهم ضد ادعاءات المغرضين ، فحاول أن يكتب عن مرضى الكلب وكيف يراه العرب فقال فى مقال طـويل غطى أربعة أعمدة من صـحيفة « المبشر » وكان المقال تحت العنوان التالى : شـأن الكلب لدى أطباء العـــرب » .

« ما من أحد مارس الطب تدريسا أو تأليفا ، تفرسا أو تكلفا . كان قد استضاء بذبالة من بدره ، ولعق بلالة من بحره فقال : « قطنى ملات بطنى الا وعزه ختامه بما سره به وسـواسه » ، فظن كأغلب الناس ان المسـلمين ليسـوا من ذوى التمهر ، بل الدراية وابتكار مسائل الطب وابتداعها والتراكيب واختراعها ، ومفردات الادوية واعرابها ، جازما بأنهم لا يملكون مثقال ذرة من ابراز الاسرار الطبية ، ولم يظهر ذو الغيب على السنتهم وايديهم ما يقى صحة أو يردها واولوية علومهم العقلية والنقلية ، انما هى الاختلاس من الكتب اليونانية « ونحـو ذلك من الأوهام » .

هكذا يعبر الحفناوى فى مقاله هذا عن اتهامات المغرضين ضد العرب والمسلمين ، واتهامهم بالعجز وبعدم القـدرة ويرد على الاتهـام قائلا :

« ونحن نقول أن هذه الظنون ليست من الحق والصـواب بشىء ، ألم يكن فى صـدر الاسـلام أئمة جاءوا من وراء الغاية فى الصناعة المذكورة وعلمها ، باهت بهم السـنون الهجرية سـائر التواريخ . ولاسيما اذ هذبوها لمن بعدهم ، فبرز من تلك الأزمنة الى الآن علماؤهم من المتفحلين المتبحرين فى كافة العلوم ؛ ولو بارزوا من قبلهم لأقروا لهم بالأفضلية ، وانظر ما للبوادى من التجارب ،

المرئية بينهم سلفا عن خلف ، وأسأل عن أطباء العرب فى قديم الزمان ، وكفانا حجة الطب المنقول فى الشرعيات ، ولعمرى ان اغنياب المسلمين من قبل هذا الفن لوهم واضح و (غلط فادح ..) (۱) » .

كان هذا الكلام فى شهر مارس – آذار – عام ۱۸۸۷ . فانظروا كيف كانت غيرة هذا الصحفى الجزائرى على عروبته ضد المتهكمين المتكالبين عليها ، فدفعه دم العربى المسلم الى أن يرد عليهم ولو بطريقة بسيطة ردا سليما .

وليس العجيب فى هذا الرد البسيط السليم بل العجيب أنه كان فى عهد كانت فيه الجزائر تعيش فى ظلام قاتم وقد مر على احتلالها من طرف الجيوش الغازية بقوة الحديد والنار سبع وخمسون سنة .

ولم يقتنع الصحفى ابو القاسم محمد الحفناوى بهذا الرد البسيط السليم ، فيقدم الدليل على ما يقول واستشهد على مازعم – بقول النبى صلى الله عليه وسلم فى هذا المرض أى (مرض الكلب) فيقول :

« انه قد روى عنه فى الطب ما معناه : أن علامة الكلب احمرار العينين وارتخاء اللسان ، ودلاعته وخروجه مدلى من الفم ، وسيلان اللعاب بين الشاربين ، وتنكيس الرأس وانكسار الأذنين وانسدال الذنب ، وامتداده بين الفخذين ، والسعى الدائم ، والهرولة ، بدون فتور وشبه السكران تحركا ، والارتماء

---

(۱) انظر : جريدة المبشر لشهر مارس – آذار ۱۸۸۷ .

على أى مرأى ، وقلة النبح ، وان كان فبصوت غليظ ، مشوب بخرخشة وهروب الكلاب منه ، وعدم أكل ما يغذيه ، والخوف من الماء ، ومتى عض انسانا ، يرى ذلك المعضوض مثله فى أقرب مدة . وتظهر عليه العلامات المذكورة الدالة على الكلب » .

وأى مرض أعظم من داء يسرى فى الجسد بمجرد انتشابه وليس الا عض الكلب والمكلوب .

تركيب الهـــواء :

أما فى خصـــوص تركيب الهــواء فنقتطف الفقرة التالية فى موضوع طويل نشر على حلقات بعنوان « تركيب الهواء » :

« قد أسلفنا ذكر صنفين من الهواء وفرقنا بينهما بقولنا أن احدهما ما يقع فيه احتراق الحطب ، وثانيهما ما لا يحترق فيه الحطب ، فرأينا الآن انه يمكن تعريف كل منهما بزيادة قيد آخر ، وذلك بقولنا : احدهما هو الهواء الذى يمتزج من المحترق مدة الوقود وثانيهما الهواء الذى لا يختلط معه فى تلك المدة ولما كثر الفرق بين ذينك الصنفين ينبغى لنا أن نجعل كل منهما موسوما بعلامة خاصة فصنف الهواء الذى لا يمتزج به نسميه هواء أزوت أو غاز أزوت . فالاسمان المذكوران حديثان ولا غرابة فى ذلك ، لأن كل ما حدث للحس ادراكه يمكن أن يصاغ له اسم ولا يتوهم متوهم أن تينك المادتين كانتا عديمتين ثم برزتا للوجود ، كلا ، انهما موجودتان منذ أزمنة لا يعرف أولها ، وبقينا تحت الغيب منه كالكنز المدفون فى خبايا الارض (١) .

---

(١) المبشر ٨ أكتوبر تشرين الاول ١٨٨٧ .

الخلاصـــة (١) :

هذا هو أسلوب صاحبنا الحفناوى فى تحرير الأخبار أو فى صياغة المقالات العلمية أو الاقتصادية أو التجارية .

وان المقالات الطويلة التى ألبسها قلم الحفناوى بن الشيخ ثوبا عربيا كانت اساسا بالفرنسية كما سبق أن بينا بالحجج ، والحفناوى لم يقم الا بصياغتها أو تلخيصها فقط ، والأسـباب عديدة وأهمها أنها تمـدح أعمال الفرنسـيين ، وتظهر عظمتهم وتخدم ركابهم . وكان هو بحكم وظيفتــه خاضـعا لرقابة الولاية العامة يقوم بصياغتها فيستعمل قلمه ليصـوغ الفكرة فى قالب عربى سليم . أما المحتوى فلا دخل له فى تغييره .

فاذا نظرنا اليه من خلال كتاباته فى الربع الأخير من القـرن الماضى بنظرة سطحية فأننا نحكم عليه بأنه كان مواليا للفرنسيين، خاصة وقد التقى أيام قدومه الى الجـزائر طالبا للعلم فى مطلع الثمانينات بالسيد حسن بن بريهمات الذى كان حينذاك أحـد المستسلمين للمستعمر . فاستضافه ثم استصحبه سنوات طوالا الى أن توفى ابن بريهمات .

واذا لم نمعن النظر فيما كتب فانه يمكننا أن نطلق عليه نعت « الوطنى ضد الوطنية » الذى أطلقه الأستاذ الدكتور سعد الله على جماعة المحافظين عام ١٩٠٠ .

---

(١) الى جانب جريدة المبشر فقد اعتمدت كذلك على المراجع التالية :

١ ــ الصحافة العربية للسيد أديب مروة .

٢ ــ الحركة الوطنية للدكتور أبى القاسم سعد الله .

٣ ــ مجموعة مجلة العالم الاسلامى (١٩٠٦ ــ ١٩١٢) الناطقة بالفرنسية .

٤ ــ المسلمون الفرنسيون فى شمال افريقيا للسيد اسماعيل حامد ١٩٠٦ .

أما اذا عمقنا النظر فيما كتب ، فاننا نجده كان يخدم بلاده وبنى وطنه بطـريقة مسـتترة دون أن تتفطن الى ذلك الادارة الاستعمارية . وكيف لا ، وهو الصحفى الماهر الواسع الاطلاع . وكيف لا ، وهو الأسـتاذ المربى ، والمحـاضر الموجـه ، كان يدعو الناس الى العلم والمعرفة . وكيف لا ، وهـو المؤلف الذى ألف كتابا اظهر فيه للاجيال القادمة شخصية أجدادهم ، وقال فيه :
« هذه آثارنا تدل علينا .. فانظروا بعدنا الى الآثار » .

الفصل التاسع

السيد محمد بن مصطفى الخوجة

الجراد فى صور الغزلان

احياء الأراضى بالأشجار

السيد محمد بن مصطفى بن الخوجة :

وبعد الحديث عن السيد محمد الحفناوى بن الشيخ ، الصحفى الشهير ، وصاحب كتاب « تعريف الخلف برجال السلف » أتحدث عن الصحفى السيد محمد بن مصطفى بن الخوجة قبل أن أختم هذه الدراسة بآخر حديث عن السيد اسماعيل حامد .

ذلك لأن السيد محمد مصطفى بن خوجة قد زامل السيد محمد الحفناوى سنوات طوال بلغت ١٥ سنة صال فيها وجال بقلمه السيال .

واذا دخل الأول الصحافة عام ١٨٨٤ وهو يبلغ من العمر ٣٣ سنة ، فان الثانى قد دخلها بسنتين بعده ، أى عام ١٨٨٦ وله من العمر ٢١ سنة .

لهذا فضلت الحديث عنه تاركا الآخرين الى وقت آخر ان شاء الله ..

السيد محمد بن مصطفى بن الخوجة :

x هو الصحفى الذى ناضل من أجل تحرير المرأة المسلمة .

هو الأستاذ الذى درس التفسير والتوحيد والفقه والعلوم الأخرى .

هو البحاثة والمؤلف : كتب رســـالة عن تحرير المرأة وتلاها بكتاب « الاكتراث فى حقـوق الاناث » ثم نشر تفســـير القرآن للشيخ عبد الرحمن الثعالبى .

أين ولد هذا الصحافى ؟ وكيف نشأ ؟

ولد محمد بن مصطفى بن الخوجة المدعو (شـيخ الكمال) بالجزائر العاصـمة فى السـنة التى زار فيها « لوى نابوليون » الجزائر للمرة الثانية ، أى سنة ١٨٦٥ ، وفى العاصمة تلقى تعليمه الابتدائى ، ثم تلقى العلوم المختلفة على علماء أجلاء عديدين كانوا حينئذ من مشاهير العلماء .

هكذا انطلق يشتغل صحافيـا فى هذه الجريدة تسع سنوات الكثير عليهم وخاصـة على السـيدين العالمين محمد السـعيد ابن زكرى(١) والامام الكبير والمفتى الشهير السيد على بن الحفاف(٢) . وهكذا نشأ فى وسط العلم ، فما كاد يبلغ من العمر عشرين عاما حتى جمع من العلوم الشىء الكثير وأصبح مقتدرا على الانتـاج والابتكار بعد أن مر فى مراحل عديدة من الأخذ والهضم .

ولما بلغ من العمر ٢١ سنة دخل الى عالم الصـحافة وهـو مسلح قوى لا يهاب . كان ذلك عام ١٨٨٦ عندما بدأ يشتغل فى جريدة « المبشر » كمحور فى طبعتها العربية (٣) .

---

(١) كان هذا العلامة يطبق دراسته على الاساليب العلمية الحديثة . وكان داعيه للتجديد فى أساليب الحياة كلها .

(٢) توفى هذا العلامة سنة ١٨٩٠ .

(٣) السيد بن الشنب فى مجلة كلية الاداب « النهضة العربية فى الجزائر » . العدد الاول السنة الاولى ١٩٦٤ .

ومن هذا التاريخ انطلق صاحبنا يكتب ويحرر ويصحح .
والغالب على الظن انه كان يقوم بالترجمة أيضا وقد وجدنا فى صفحات المبشر الكثير من المواضيع مترجمة اساسا من اللغة الفرنسية . لكننا لا نعلم ما اذا كانت هذه المواضيع من ترجمته هو أم كانت من ترجمة الولاية العامة كما هو معتاد .

أما المصادر التى راجعناها قبل كتابة الموضوع . فلم تتحدث فى شىء عن هذا الجانب للسيد محمد بن مصطفى بن الخوجة عما اذا كان عارفا باللغة الفرنسية أم لا ، لكن الدلائل تشير الى أنه كان عارفا بهذه اللغة . وأهم هذه الدلائل معاصروه ، اذ كانوا يعرفون اللغتين ، والكثير منهم كانوا مترجمين بالجيش أو القضاء .

هكذا انطلق يشتغل صحافيا فى هذه الجريدة تسع سنوات متتالية الى عام ١٨٩٥ . وفى هذه السنة عين مدرسا فى « جامع السفير » بالعاصمة .

واذا كان السيد محمد الحفناوى قد سبقه الى عالم الصحافة بسنتين . فانه تأخر عنه بعامين فى الدخول فى عالم التدريس ، اذ لم يلتحق السيد الحفناوى بالتعليم الا فى عام ١٨٩٧ ، حيث عين مدرسا هو الآخر فى الجامع الكبير ، كما سبق ذكره .

وفى جامع السفير بالعاصمة كان السيد محمد بن مصطفى ابن خوجة يدرس التفسير والتوحيد والفقه وعلوما أخرى .

وامام هذا المنصب المغرى الكبير ، يبادر الاعتقاد لذهن القارىء بأن السيد محمد مصطفى خوجة ـ نختصر له هذا الاسم منذ الآن ـ قد اعتزل ميدان القلم الصحافى وابتعد عن ميدان صاحبة الجلالة ! كلا ابدا .

فالسيد محمد مصطفى خوجة كان يتبحر فى علومه مع تلاميذه فى جامع السفير ، وكان فى قاعة تحرير جريدة « المبشر » يجول ويتنزه فى حدائق أخبار العالم .

وقد تولى الوظيفتين معا : وظيفة الصحافى المخلص لصاحبة الجلالة ، ووظيفة المدرس العربى الأمين لعلوم الأولين والآخرين مدة سبع سنوات على التوالى ، أى منذ عام ١٨٩٥ الى عام ١٩٠١ حيث اعتزل مهنة الصحافة وتوقف عن الكتابة فيها .

وفى هذه السنة التى توقف فيها عن الحياة الصحافية كان قد عاش ١٥ سنة كاملة حياة صحافية بدون انقطاع .

وبحكم المهنة كان الصحافى محمد مصطفى خوجة مثل السيد الحفناوى مطلعا على أحوال الشرق والغرب والتطور الفكرى والنهضة الحضارية المتحركة والحركة الاصلاحية الناهضة ، وفى نفس الوقت كان يعيش مع بنى قومه فى وطن سليب تلعب وتعبث به أيادى المستعمرين التى حطت رحالها منذ أكثر من ٧٠ عاما أتت اليه غازية غاصبة ، وتجمعت فيه من كل فج عميق بالقارة الأوروبية .

ودفعت فيه هذه العوامل قوة الحفاظ على حضارة الاجداد . واستمد أيضا الصحافى محمد مصطفى خوجة من جرائد العالم العربى التى كانت أعمدتها مملوءة بالحيوية والنشاط والأفكار الاصلاحية ، وخاصة منها صحيفة « المؤيد » التى بدات تصدر فى زمانه (أى عام ١٨٨٩) ، وصحيفة « مصباح الشرق » ، وصحيفة « المنار » .

كما كان ، من كثرة اتصاله بالشرق واهتمامه بما يجرى فيه متأثرا بحركاته الاصلاحية تأثرا كبيرا ، من ذلك نراه يقتدى

بمعاصره وزميله الشيخ حمزة فتح الله الذى كان محررا بالجريدة الرسمية التونسية (الرائد التونسى) منذ عام ١٨٧٦ .

وكان الصحافي محمد مصطفى خوجة بحكم المهنة يطلع على (الرائد التونسى) طبعا . وقد تأثر بكتاب السيد فتح الله وهو (باكورة الكلام على حقوق النساء فى العالم) وقد طبع هذا الكتاب فى مصر سنة ١٨٩١ . ونتج عن ذلك أنه كتب رسالة عالج فيها الانحلال الذى وقع فى المجتمع الجزائرى مثل ما وقع وتفشى فى المجتمع العربى بوجه عام .

وفى رسالته هذه أراد السيد محمد مصطفى خوجة أن يدافع عن المرأة الجزائرية ، ضد ظلم الرجال والقساوة والتقاليد التى **كبلت المرأة المسلمة ، لا فى الجزائر وحدها ، بل وفى العالم العربى والاسلامى على العموم . ومن رسالته هذه نكتشف الصحافى** محمد مصطفى بأنه كان من المناضلين العرب الأوائل الذين كانوا يناضلون من أجل تحرير المرأة التى هى المدرسة الأولى للاجيال القادمة .

كان ذلك عام ١٨٠٥ حيث دافع عنها ، واستعان بالآيات البينات والأحاديث الشريفة التى تدعو جميعها الى مراعاة حقوق المرأة كاملة ، حسب ما تقتضيه الشريعة الاسلامية فى الكتاب والسنة .

ونظرا لتشدده هذا قال عنه المرحوم سعد الدين بن الشنب : « كان رحمه الله ذكيا قوى الادراك ، ملتزما بالسنة والتشدد على أصحاب الخرافات والبدع والانعزال » .

وكان ينظر الى أمور العصر بمنظار (١) سديد . وبرسالته

---

(١) مقال السيد بن الشنب بعنوان : « النهضة العربية » بالمصدر السابق.

هذه نكتشف فى هذا الصحافى شخصية ثالثة وقد عرفنا محمد مصطفى خوجة صحافيا فى أول الامر ثم أستاذا معلما ، وهانحن نكتشف فيه شخصية ثالثة وهو محمد مصطفى الكاتب المؤلف والمناضل من أجل تحرير المرأة المسلمة التى دافع عنها فى رسالته السابقة الذكر .

فاذا كان الجانب الأول فى صاحبنا خطيرا والجانب الثانى كذلك ، فان هذا الجانب الثالث لا يقل خطورة عن السابقين أثرا وحضارة . ولم يتوقف الصحافى محمد مصطفى خوجة عند هذه الرسالة ، بل تلاها بكتاب عنوانه : (الاكتراث فى حقوق الاناث)، وأنه لم يتوقف عند الرسالة الموفقة وهذا الكتاب ، بل انطلق يكتب ويؤلف ويراجع المخطوطات ، ومنها تفسير القرآن (١) للشيخ عبد الرحمن الثعالبى كما ذكرنا .

وبما أن الصحفى محمد مصطفى بن خوجة كان متأثرا بالحركة الاصلاحية فى المشرق العربى ، فان مما لا شك فيه أنه التقى بالأستاذ الكبير محمد عبده عندما زار الجزائر عام ١٩٠٣ ، وتأثر كثيرا بآرائه حتى صار من أنصار مذهبه فى الجزائر (٢) .

وبعد اعلان الحرب العالمية الأولى بسنة واحدة وافته المنية، كان ذلك فى شهر سبتمبر ، أيلول عام ١٩١٥ . وافته المنية وهو لم يتعد الخمسين سنة من عمره ، قضى منها حوالى ثلاثين عاما فى الحياة الفكرية والثقافية ، رحمه الله رحمة واسعة .

ويسأل السائل هل ترك هذا الصحفى شيئا من كتاباته الصحافية ؟

---

(١) نفس المصدر .

(٢) المبشر عدد (٢٨٣٠) ١٦ مارس ١٨٨٧ .

والجواب عن هذا السؤال تقدمه لنا جريدة « المبشر » هذه الجريدة التى زاملها مدة ١٥ ســـنة مازالت تحفظ له ذكريات جميلة .

ومن هذه الجريدة نأخذ بعض المقتطفات كنماذج لكتــاباته ، ونظرا لكثرتها فاننا نكتفى بشىء قليل منها ونرجو المعـــذرة اذا اقتضبنا فى تقديمها وعرضها .

لقد كتب الصحفى محمد مصطفى خوجة فى ميادين عديدة ، فكتب فى الاقتصاد ، وكتب فى التـــاريخ ، وكتب فى الاجتمـــاع والأخبار والفلاحة .. الخ ..

فى التاريخ ، كتب سلسلة أو صـــاغها واعاد تحريرها من المقالات ، تتحدث عن تاريخ العمران الليبى ، حيث تطرقت الى ميادين عديدة ، من هذه السلسلة نأخذ المقتطف التالى كنموذج لكى يمكننا من أن نعرف وان نأخذ فكرة عن أسلوب هذا الصحفى الجزائرى ، فهو يقول عندما تحدث عن مدينة بنى غازى مثلا :

« ولها أيضا مبانى للعبادة تلوح بأفقها أنوار السعادة ، وذلك كالبيع والصلوات والجوامع والمزارات والمنابر والصــوامع ، الا أنها لم يبق لها شىء من المآثر القديمة كى ترشد الى ما اندثر من محاسنها فى الجملة ، وتذكر بتاريخها الفـــارط ، وتذكر بعزها الغابط سوى بعض الأحجــار ، تخلفت دالة على أماكن رصيف المرسى وجرفها مع ما قد وجد أيضا فى تخوم أرضها دفينـــا من المنقوشات العجيبة والأوعية المرقومة الغريبـــة ، والأشخـــاص المضروبة من النقود وغيرها » .

الجراد فى سور الغزلان :

ومن هذا الوصف للآثار الباقية من مدينة (بنى غازى) القديمة ننتقل الى الأخبار نقتطف فقرات من أسلوبه فى كتابة الاخبار نقلا

عن مقال خبري كتبه عن اجتياح الجراد لمنطقة « سور الغزلان »، وفيه يقول :

« قد شرع ببلدة سور الغزلان المتزجة فى التحيل على الوصول الى كشف كيفية التخلص والنجاة من بقاء الجراد ، سعيا لهلاك بيضه ، وطلبا لدفع شره ، ثم انه قد اكتشف على مواضيع البيض التى سرى فيها أكثر من غيرها وهى بجوار (أولاد سى عمرو) امتثالا لأمر المكلفين بالأشغال لكثرة الأمطار الهاطلة .. لكن دعى متصرف أمور البلدة المذكورة الا أنه قد تعطل ارسال الناس من ١٦ عرشا .. عددهم ٤٠٠٠ خادما لهذه الأعمال النافعة .. (١) وذلك من ٢٧ فبراير الى ٨ مارس » .

احياء الأراضي بالأشجار :

اما فى مجال الدراسات والأبحاث فنجد له سلسلة أخرى هامة تحدث فيها بل أسبغ عليها ثوبا - اذا لم تكن له فانه قد جعلها تقرأ بتشوق ورغبة ، وهى خصوبة الأرض التونسية فى الزمان الغابر ، وكيف كانت مغطاة بالأشجار ، فاندثرت مع الأيام باهمال أصحابها لها عن عدم المعرفة بالحفاظ عليها . ومن هذه الحلقات نأخذ مثلا مقدمة الحلقة التى نشرت « بالمبشر » عدد ٢٩١٠ لعام ١٨٨٧ وفيها يقول :

« قبل الشروع فى تمام الكلام على أحوال الغابات التونسية ينبغى لنا أن نلقى على مسامع قراء جريدتنا نبذة فى كيفية احياء الأراضى بالأشجار فنقول : لا ريب فى أنه لا يغرب عن علم أحد أن المواطن التونسية كانت فى قديم الزمان أكثر مما هى عليه اليوم بأضعاف مضاعفة . وهذا الزمان الموصوف بالقديم لا يعرف وقته

---

(١) المبشر عدد ٢٨٣٠/١٦/مارس ١٨٨٧ .

يقينا ، اذ يحتمل أن نزول الفساد على الشجر المومى اليه وقع فى وقت أقدم من كل ظن ثم ان المبانى العظيمة التى نصبها الرومان ثمة لجلب المياه من المسافات الشاسعة تدل على أن الأراضى التونسية غدت ناقصة من جانب الغاب فى ابان تسلط المذكورين عليها . ولا شك ان فساد الشجر الحاصل فى تلك الأزمنة تسبب عن تفريط الأهالى وجهلهم بما هو أعود عليهم نفعا دون تعمد منهم اهلاك الشجر (١) .

وكتب السيد محمد مصطفى خوجة فى الفلاحة وكيفية غرس النباتات كما كتب (مرثيات) يمدح فيها بعض الأعيان عند وفاتهم ولا ننسى أن نذكر لصاحبنا أنه كتب كتابا آخر بعنوان « اللباب فى أحكام الزينة واللباس والاحتجاب » تلك هى حياة السيد محمد ابن مصطفى بن خوجة الذى ولد بالجزائر العاصمة ومات بها سنة ١٩١٥ وهو لم يعبر باب الخمسين سنة من عمره .

---

(١) نفس المصدر رقم ٢٩١٠ و ١٧ ديسمبر ١٨٨٧ .

أهم المراجع :

١ ـ جريدة المبشر مجموعة ١٨٨٧ ـ ١٨٩٠ .

٢ ـ مجلة كلية الاداب السنة الاولى العدد الاول عام ١٩٦٤ .

الفصل العاشر

اسماعيل حامد

نشاطه الثقافى

((المسلمون الفرنسيون فى الشمال الأفريقى))

اسماعيل حامد المحاضر

اسماعيل حامد الصحفى

اسماعيل حامد

●● حديثنا الآن عن السيد اسماعيل حامد (حميت) الترجمان الرئيسى بأركان الجيش الفرنسى . ونظرا لعدم وجود معلومات أو مصادر تفيدنا بتاريخ ميلاده أو تاريخ وفاته أو تتحدث عن أعماله الأدبية أو الصحفية ، نجد أنفسنا مضطرين للبقاء فى العموميات ، والحديث على بعض جوانب نشاطاته الثقافية والصحفية ، معتمدين فى ذلك على ما ألف وما كتب فى الصحافة .

ويجدر بنا أن ننبه مسبقا بأن ثقافة السيد اسماعيل حامد (١) ثقافة فرنسية ، وتأسيسا على ذلك فان نشاطه وكتابته كانت بالفرنسية .

وبقى هل يعرف اللغة العربية أم لا ؟ فيمكننا أن نقول ، رغم اننا لا نملك مراجع نعتمد عليها ، انه بحكم مهمته كمترجم لدى أركان الحرب العامة فهو يحسن اللغة العربية .

كان السيد اسماعيل حامد ، مثل السيداحمد بن لفكون ، ترجمانا عسكريا شهيرا بلغ مرتبة عليا فى سلم الترجمة بالجيش الفرنسى بالجزائر .

---

(١) من المعتقد أن اسم السيد/اسماعيل حامد قد حرف فى كتابته باللغة الفرنسية من حامد أو حميد الى (حميت) شأنه فى ذلك شأن أسماء الجزائريين اذ لم يوجد فيها اسم صحيح عندما تكتب بالفرنسية . فاسمه يكتب بالفرنسية Ismael Hamet وهو ولا شك محرف من لفظ حامد . وبناء على ذلك فانا أكتبه باللفظ العربى السليم (اسماعيل حامد) مثل ما فعل الدكتور أبو القاسم سعد الله .

ونظرا لتكوينه الثقافى الفرنسى ، فقد كان متأثرا بالوجود الفرنسى والقلم العربى ، الشيء الذى جعله يستسلم فكريا ويؤمن ببقاء الوجود الفرنسى فى الجزائر الى الأبد . ومن ثمة فهو يتشابه الى حد بعيد فى العقيدة مع أحمد ابن لفكون الذى سبق الحديث عنه .

ولم يكن يؤمن بالوجود الفرنسى الى الابد فقط ، بل انه ذهب الى أبعد من ذلك ، هو انه لما شهد حركة الهجرة الاوروبية الى الجزائر ونشاط الأوروبيين الاقتصادى المتزايد الذى يساعد على انتشار المستوطنين فى كامل أرض الجزائر ، قرر مع من سبقوه لمثل هذا القرار بأن أفريقيا (الجزائر) ستصبح مقرا تذوب فيه كل الجنسيات المخالفة للمسيحية ، تلك الجنسيات التى عاشت فى الجزائر فى أطوار تاريخية متعاقبة مختلفة من عرب ومزيغيين الذين بقوا بعيدين عن كل دخيل أجنبى : وعندما يتحقق ذلك يخلق فوق الأرض الجزائرية شعبا واحدا ، وهذا الشعب يدعى بالشعب الفرنسى » .

وبناء على هذا الرأى فانه يمكن أن يوضع السيد اسماعيل حامد فى زمرة النخبة التى ظهرت فى أواخر القرن الماضى ومطلع هذاالقرن ، والتى كان اتجاهها اتجاها ادماجيا فى الكيان الفرنسى، وبالاضافة الى ذلك فانه كان داعية الى التجديد وقلب صفحة الماضى ، وهو بذلك يعاكس تماما نزعة المحافظين ، الذين كانوا يحاولون ابقاء الأمور على ما كانت عليه .

نشاطه الثقافى :

لم نعرف للسيد اسماعيل حامد نشاطا ثقافيا قبل مطلع

هذا القرن ، ولم نعثر له فى الصحف على كتابات تذكر (١) الى أن ظهر كتابه « المسلمون الفرنسيون بشمال أفريقيا » عام ١٩٠٦ ، ولكن ليس معنى هذا انه لم يكتب فهو بحكم عمله كمترجم رئيسى بالجيش الفرنسى كان يقوم بأعمال الترجمة لأعمال معينة .

أما ونحن أمام هذا الوضع ، فلا بد اذن من الاعتماد أساسا على كتابه كمرجع نحاول من خلاله التعرف على هـذا الكاتب الصحفى الذى ترك كتابه أثرا لا بأس به من حيث دراسة المجتمع الجزائرى فى الحقبة الأخيرة من القرن التاسع عشر .

« المسلمون الفرنسيون فى الشمال الافريقى » :

كتب السيد اسماعيل حامد كتـــابه « المسلمون الفرنسيون بالشمال الافريقى » فى مطلع هـــذا القرن وطبعه فى باريس عام ١٩٠٦ .

وقد قسم الكتاب الى ثلاث فصول :

أولا ــ الفصل الأول ، خصصه للحديث عن الماضى بما فيه تكوين وتوزيع السكان المسلمين فى المناطق ثم تحدث عن الامازيغيين والعرب ، ثم الحضارة الاسلامية العربية ، ثم التسامح الاسلامى . ثم ادماج الامازيغية والعرب فى أفريقيا .

---

(١) قال على مراد فى مجلة ابلا ٢٧١ لسنة ١٩٦٤ ص ١٣ . وقد أشار اليه الدكتور سعد الله فى هامش ص ٧٩ « كان أكثر أعضـــاء اللجنة الجزائرية ذوى اللسانين قد اشتغلوا فى تحرير « الاخبار » و « المبشر » وكلاهما صحيفة فرنسية رسمية تنطق باللسانين . والهدف منها هو تبليغ الجزائريين سياسة فرنســا الرسمية . من بين هذه النخبة الحفناوى ، شرشالى ، فخار ، بدوى ؛ وبريهمات . وجميعهم اشتغلوا كمحررين .

ثانيا ـ الفصل الثانى ، وخصصه للحديث عن الحاضر أى الجزائر عام ١٩٠٠ وهو مقسم كالآتى :

تحـــدث فى بابه الأول عن المجتمع الاســـلامى أيام دخول الفرنسيين ، ثم المجتمع الاســـلامى تحت الحـــكم الفرنسى ثم الاستيطان ، ثم التطور الفلاحى ، ثم التطور التجارى ثم التطور الثقـــافى .

ثالثا ـ الفصل الثالث ، وخصصه للحديث عن المستقبل وفى بابه الأول تحدث عن المكتسبات الفرنسية ـ طبعا ـ ثم الاوروبيين والاهالى ، ثم حركة الاهالى ، ثم التطور الدينى ، وفيه تحدث عن الزوايا الطرقية ، ثم ختم كتابه بالحديث عن افارقة المستقبل (١) متوجها بالحديث للسيد دوشاطوليى .

قائلا : « نقول مع المسيو دوشاتولبى بأن الأهالى الجزائريين الذين تبنوا الأفكار العصرية سيتركون عاداتهم القديمة المتعصبة ، وينسون بعض تقاليدهم ولا يترددون فى محاكاة الاوروبيين » .. ثم يستخلص قائلا « والخلاصة ان العناصر المختلفة التى يتكون منها المجتمع الافريقى فى الجزائر لمدعوة للوحدة ..

وهذه الوحدة التى تكونت سابقا بقيادة الديانة الاسلامية على أساس الحضارة الاسلامية ، ســتتكون هذه المرة على أســاس الحضارة الفرنسية » .

ومن هذا العرض لفصول كتاب السيد اسماعيل حامد نتوقف لحظة عند الباب السادس من الفصل الثانى . وفيه يتحدث عن التطور الثقافى لدى الجزائريين .

---

(١) افارقة المستقبل هم جزائريو المستقبل .

بدأ فى استعراض ذلك ابتـــداء من عام ١٨٣٠ فقال : « ان الحكومة الفرنسية فكرت عام ١٨٣٦ فى انشاء مدرســة عربيــة فرنسية قصد التقارب بين الأهالى والفرنسيين بتعليم أبنـائهم اللغة الفرنسية . وفى عام ١٨٣٧ أنشئت مدرسة للكبار ، وفى عام ١٨٤١ أنشئت مدارس فى الجزائر وعنابة ووهران ، واستقبلت هذه المدارس ١٠٢٩ تلميذا بين مسيحيين ومسلمين .

« وفى عام ١٨٥٧ أسست مدرســتان (كوليج) عربيــة ـ فرنسية بالجزائر وقسنطينة كل واحدة منهـا اسـتقبلت ١٠٠ تلميذ » .

وبعد ان يصل إلى عهد ثورة المقرانى يقـــدم ترجمة لخمس وأربعين شخصية جزائرية كانت تشتغل فى سلك الترجمة .

وينتقل من سلك الترجمة الى سلك المعلمين فيقدم قائمة تراجم لسبع وعشرين شخصية من الأساتذة والمعلمين والمعلمات .

ومن التعليم ينتقل الى الادارة والمحاكم ، فيقدم قائمة تراجم للموظفين والقضاة ، بلغ عددهم ١٥ شخصا وبعد الترجمة والتعليم والقضاء يصل الى الحديث عن رجال الصحافة فيقــدم تراجم مختصرة كعادته لستة صحفيين .

واخيرا السلك الطبى فيقدم ١٦ شخصية من الأطباء .

وفى الختام يقدم احصـــاءات عن المؤسســـات التربوية طبقـــا للاحصاء الرسمى الفرنسى لعام ١٩٠٢ .

ومن كتاب السيد اسماعيل حامد وحديثه عن الحضـــــارة الفرنســية نستخلص النتائج التالية :

* بلغ تلامذة اللغة الفرنسية من الجزائريين ٢٥٦٢٩ تلميذا .

* وبلغ تلامذة المدارس العربية الثلاثة ٢٠٨ تلاميذ .

* وبلغ مجموع المعلمين والممرنين الجزائريين ١٨٠ معلما وممرنا .

* وبلغ عدد الطلبة الجزائريين فى مدرسة المعلمين ٢٣ طالبا .

هذا هو التقدم الثقافى والعلمى الذى أدخلته الحضارة الفرنسية للجزائر خلال سبعين عاما من وجودها بالجزائر ؟؟

ومع هذا فان السيد اسماعيل حامد يرى ذلك من النعم التى تفضلت بها الحضارة الاوروبية على الجزائريين : ويرى بان هذه الحضارة ستدمج العناصر المكونة للمجتمع الافريقى بالجزائر ، وتخلق منه شعبا هو الشعب الفرنسى ، بل كان يرى أن هذه الفكرة التى تنبأ بها السيد « ادريان بيربروغر » عام ١٨٥٧ قد تحققت فعلا .

هذه بعض أفكار السيد اسماعيل حامد الكاتب سقتها من كتابه باختصار .

اسماعيل حامد الصحفى :

أما فى ميدان الصحافة فقد ظهر اسمه على صفحات مجلة « العالم الاسلامى » عام ١٩٠٧ ، تلك المجلة التى بدأت الصدور عام ١٩٠٦ فى العاصمة الفرنسية .

فكان السيد اسماعيل حامد من بين كتابها حيث كان يهتم بأحداث العالم الاسلامى ، فتارة يكتب عن « الأخوانية » وتارة فى التجارة ، وأحيانا يقدم معرض الصحافة العربية ، وكان على العموم يكتب الاسلاميات : كما كان يهتم بما تكتبه الصحف العربية ويقدمه بالفرنسية .

فى التجـــــارة :

كتب فى شهر فبراير شـــــباط عام ١٩٠٧ مقالا طويلا عن « التجارة والجزائريين » ونشره فى مجلة العالم الاسلامى (عدد فبراير ١٩٠٧) .

تحدث السيد اسماعيل حامد فى هذا المقال عن معرفة المسلمين بأفريقيا المشهورة بالتجارة ، وكذلك حبهم للاســـفار من أجل التبادل ، وهم يحافظون على هذه المعرفة ، وهـــذا الذوق من اجدادهم **الأوائل** ، ونحن نعلم بأن أسياد البلاد الأوائل قد طوروا هذه الروح ووضعوها فى العمل ..

ويصف التعليم العربى فى مصر .

... ثم يذهب للحديث عن الفينيقيين والقرطاجنيين والقــوافل العــربية التى كانت تجتاز مصر ، والقـــوافل الليبية التى كانت تنطلق الى النيجر .. ثم يحلل تحليلا تاريخيا النشاطات التجارية **فى العهود الرومانية والبيزنطية فى فرنسا واثينا** ،فى روما والسودان، **فى مراكش** والقاهرة . ، **وبعد ما تحدث عن** النشاطات التى قام بها الجزائريين فى ميدان التجارة بين المشرق والمغرب العربيين وافريقيا الســوداء يقول : . .

وهكذا فان العالم الاسلامى الجزائرى قد أصبح منعزلا ضمن حدوده ، وليس له علاقة تجارية أو اجتماعية لا مع المغرب ولا مع المشرق ولا مع السودان .

ثم يتساءل قائلا :

هل مل الجزائريون هذه النشاطات التجارية التى كانت تدر عليهم الأرباح ؟ وهل أضـــاعوا ذوق المفاوضـــات التجارية فى حين

يحتكمون الى أمة جعلت من التجارة والصناعة قاعدتين أساسيتين لقوتها فى العالم ؟

بعد ذلك يقدم قائمة احصائية لنشاط الجزائر التجارية لعام ١٩٠٥ .

وبعد أن يقدم احصاءات عن الصناعات التى نشأت فى الجزائر يرجع للحديث عن الرسول عليه الصلاة والسلام عندما كان تاجرا، ينتقل مع القوافل بين مدن سوريا والعراق (١) ثم يستشهد بالرحالة المغاربة مع القوافل المنطلقة من المغرب الى الحجاز ومن هؤلاء الادريس وابن حكال وابن بطوطة .

معرض الصحف :

أما النقل والتعليق على الصحف فقد استعملها السيد اسماعيل حامد كذلك .

ومن ذلك انه كتب فى مجلة « العالم الاسلامى » ، عدد أبريل نيسان ١٩٠٧ . تعليقا على مقال كتبه الشيخ على يوسف ، صاحب جريدة المؤيد المصرية ، فى جريدته هذه، وكان الشيخ على يوسف انتقد بشدة فى مقاله حينذاك التربية الوطنية ، وكذلك اهتمام الحكومة بتعليم اللغتين الفرنسية والانجليزية اهتماما مبالغا، وفى ذات الوقت أهملت تعليم اللغة العربية .

ويشرح السيد اسماعيل حامد اتجاه الرأى العام فى مصر والاهتمام بتعليم لغة أجنبية لطبقة محظوظة من المصريين ، وكان عنوان تعليقه على الشيخ على يوسف « التعليم العربى فى مصر » .

---

(١) مجلة العالم الأسلامى شهر فبراير ـ شباط ١٩٠٧ ص ٢٧٢، الى ٢٨٦ .
Revue Du Monde Musulman

وكان يهتم فى تعليقاته بجميع الحركات التى تحدث فى البلاد العربية ، وفى معظم الحالات كان يرتكز فى مراجعه على جريدة المؤيد ، وهو ان كان ينتمى الى تلك النخبة فكريا فانه كان يعطف ويتحمس للنهضة الاسلامية ففى هذا العدد من المجلة (أبريل نيسان ١٩٠٧) تعرض بالتحليل لما جاءت به الصحف المصرية .

أما فى عدد يونيو/يوليو من نفس السنة ، فانه كتب مقالا عن الشهائد التى تمنحها الطريقة القادرية فى بغداد ونشر صورة لدبلوم هذه الطريقة . وغطى المقال صفحتين من هذه المجلة ، وكتب فى مكان آخر من نفس العدد « عن المذهب الحنفى » (صفحة ٥٩٦ ، ٥٩٧) (١) .

وفى عدد أكتوبر (تشرين الأول) ١٩٠٧ تحدث السيد اسماعيل حامد عن أحد العلماء المسلمين من مكة ، كان فى زيارة لسوريا ومصر لدراسة أساليب التعليم فيهما ، ثم يلتحق بسنغافورة ويسوق السيد اسماعيل حامد نقلا عن « المؤيد » اقوال هذا العالم ــ المسمى عبد الله بن محمد الصالح الزواوى المكى ــ فى خصوص النفوذ الانكليزى فى مناطق الجنوب العربى والهند قائلا بأن شعوب هذه البلدان تكن الكراهية والحقد للانجليز .

ويسترسل مع جريدة « المؤيد » فيسرد أحوال سكان « داغستان » واللغة التى يستعملونها وهى العربية التركية للكتابة، ويستعملون اللهجات المحلية للتخاطب . (٢) وفى نفس العدد من المجلة استخلص الرأى السائد فى مصر من جريدة « اللاق لاق » التى شنت حملة ضد اغلاق المدارس فى وجه التلاميذ البالغين من العمر ١٨ سنة أخذ منها العناوين الرئيسية لمقالات الاحتجاج (٣) .

(١) « العالم الاسلامى » يونيو ١٩٠٧ ص ٥١٨م/٥١٩ .
(٢) مجلة العالم الاسلامى أكتوبر ١٩٠٧ ص ٢٧١ وما بعدها .
(٣) نفس المصدر ص ٣٦٥ وما بعدها .

واذا كان يكتب ويعلق وينشر أقوال الصحف العربية فى صراعها من أجل النهضة بالمشرق العربى فى مطلع هذا القرن ، فأنه كان يتعرض بالتحليل والتقديم للكتب التى كانت تصدر من حين لآخر . وهكذا ففى نفس المجلة ونفس العدد قدم قائمة للكتب التى صدرت ايامذاك وهى :

— كتاب الامالى — لابى على اسماعيل البغدادى (1) .

— فلسفات الاسلام وعمران القرآن لأحمد أفندى بدوى النقاش.

— كنز العلوم واللغة .

— الكلمات المفيدة والجمل السديدة لأحمد كمال أفندى .

وهذا الاهتمام من طرفه يؤكد لنا مدى حماسه للتطور الذى كان يجتاز العالم الاسلامى فى بداية القرن العشرين ، وفى ذات الوقت كان متحمسا ساعيا للتقارب بين الجزائريين والمستوطنين ، شأنه فى ذلك شأن جماعة النخبة .

من ذلك نراه يكتب مقالا ، بل تعليقا ، على خطاب كان قد أدلى به الدكتور مرسلى أمام التلاميذ فى مدرسة (جولى فيرى) بقسنطينة ، وكان الدكتور مرسلى توجه للتلاميذ قائلا : «أصدقائى الاعزاء ، أنه منذ جيلين تآخى آباؤنا مع الفرنسيين ومشوا معهم يدا بيد ونحن أبناؤهم وأحفادهم يجب علينا أن نعمل أحسن منهم، نحن المثلون للحاضر وأنتم المثلون للمستقبل نحن جميعا الذين تكونا فى نفس المقاعد مع الأطفال الفرنسيين يجب علينا أن نكون فرنسيين بالعواطف والقلب .

---

(1) نفس المصدر ص ٣٩٠ وما بعدها .

نقل السيد اسماعيل ، هــذا المقتطف من الخطاب عن جريدة الجمهورى القسنطينى » Republicain De Constantine بعد أن قدم له ، ثم أضاف تعليق الجريدة على هذا الخطاب وقال: « نذكر بأن الدكتور مرســلى هو أحد الشــخصيات الجـزائرية المحبوبة لدى العالم الأوروبى والعالم الاسلامى » . ويذهب صاحبنا الى الحديث عن حياة الدكتور الخاصة فيقول : « أنه متزوج من فرنسيه ويعيش على النمط الفرنسى » .

وقد كان أشار فى كتابه « المســلمون الفرنسـيون بالشــمال الافريقى » الى كل القوائم التى قــدمها والشخصيات التى ترجم لها ، كما سبق ذكر ذلك ، أن هــذه الشخصيات كانت مندمجة ومعظمها منحــدرا من أمهات أوروبيات ، فأصــبحت تعيش على النمط الأوروبى جميعا ، ولم يكن اسماعيل حامد مخطئا فى ذلك .

وفى عام ١٩٠٨ عندما أعلن السيد « اسماعيل باى » عزمه على تنظيم عقد مؤتمر عام اسلامى ، ووجدت هذه الفكرة صدى كبيرا لدى مثقفى العالم الاسلامى فى الشرق والغرب ، وردت أخبارها ، كان السيد اسماعيل حــامد من المهتمين بها فى الجزائر ، فأسرع الى كتابة تحليل للرأى العام الاســلامى وتجاوبه مع هــذه الفكرة معتمدا على آراء الصحف العــربية فجاء مقاله هــذا الذى نشره بمجلة العالم الاســلامى كعادته ، دراســة تحليلية جمعت الآراء المختلفة ، وأخذ هذا التحليل ٨ صفحات من المجلة .

وفى ختام هذا التحليل قال : « مما لا شــك فيه أن مشروع اسماعيل باى » عظيم جدا ، ولذلك فهو يخلق صعوبات من كل نوع لكن ليست صــعبة الحل ، ولكنها تتطلب رجالا أذكياء ذوى حرفة ومهارة وفوق ذلك تكون لهم المهارة الدبلوماسية .

« والمهارة الدبلوماسية التى تتطلب من الرجال الذين يتحملون مسئولية جمع ورئاسة المؤتمر لا تماثلها دبلوماسية ، مثل هؤلاء الرجال هم الذين يقبلون بتحمل الرسالة لتحديد الطريقة التى يمكن معها جمع أصوات الوفود حول برنامج واحد ، تلك الوفود المختلفة العرق والطقس والمذاهب الدينية والسياسية المتضاربة والمثلة لمصالح مادية مختلفة ، عندئذ سيتضح لنا بأن نجاح مثل هذا المشروع لم يكن له مثيل فى التاريخ ، وستسجل اسماء صاحبه ومساعديه بجانب أسماء رجال الدولة الكبار (١) .

اسماعيل حامد المحاضر :

وصاحبنا لم يكن مترجما وكاتبا وصحفيا فقط ، بل كان أيضا محاضرا .

ففى شهر مارس ــ آذار ــ عام ١٩٠٧ ألقى سلسلة من المحاضرات فى « الكوليج » المدرسة الحرة للعلوم الاجتماعية .

وفى محاضراته تلك استنتج عديدا من الملاحظات ، منها اهمال القدامى الأسماء الافارقة الاصلية .

ثم ان الفوارق الطبيعية زادت فى تفريق وحدة السكان ، ومع هذه الفوارق الطبيعية اهملت وحدة العنصر ووحدة اللغة حتى صار الافارقة (٢) مفرقين تجاه بعضهم الى عناصر ليست لها أهمية . ثم قال « لعل هذا الفرق الفزيولوجى آت من طبيعة الوطن الموزعة الى تل وهضبة وصحراء ، يليها صعوبة المواصلات بين المناطق » .

---

(١) العالم الاسلامى يناير ١٩٠٨ ص ١٠٠ وما بعدها .

(٢) المقصود بالافارقة الجزائريون .

وفى جانب آخر من محاضراته تحدث عن الاحتلال الرومانى الذى « دام ثمانية قرون » فى المدن الساحلية ولم يتجاوز المناطق التلية الى مناطق الهضبة والصحراء ، وحتى المناطق التلية كان بعضها مستقلا بحكم الطبيعة مثل جرجرة والاوراس .

هذا هو السيد اسماعيل حامد المترجم والكاتب والصحفى ، حاولنا قدر المستطاع أن نعطى صورة عن نشاطه الثقافى وفكره وميوله السياسية وأسلوب كتابته ، وحاولنا أن نعرف ذلك من خلال كتابه « المسلمون الفرنسيون فى الشمال الافريقى » ، وكذلك من خلال مقالاته العديدة بمجلة العالم الاسلامى ، كما سبق ذكر ذلك ، تلك المجلة التى كان حسب ما يظهر من كتاباته – عضوا فى أسرة تحريرها .

ويؤسفنا أننا لم نتمكن من اعطاء ترجمة كاملة لحياة هذا المفكر الجزائرى الذى كان نجمه لامعا فى مطلع هذا القرن .

خلاصة القول

تلك هى نبذة موجـزة عن حيـاة وأعمـال رواد الصحافة ، والفن الصحفى ، فى القطر الجزائرى . حاولت أن اقدمها للقارىء العربى فى هذه الدراسـة المتواضعة ، التى ارجو ان أكون قد وضعت بها علامات على الطريق ، لمن أراد أن يتعمق فى البحث والدراسة فى هذا الموضوع الحيوى .

واذا استعرضت فى هـذه الدراسة ، مجموعة من الكتاب والمفكرين الجزائريين ، يتجاوز عددهم أصابع اليدين بقليل ، فليس معنى هذا ان الجزائر لم يكن بها كتاب ومفكرون غـير هؤلاء فى هـذه الفترة من تاريخ الشعب الجزائرى ، ١٨٥٠ ــ ١٩٠٠ ، بل أن عـدد الكتاب والمفكرين كان كبيرا جدا .

واذا لم يسمح لى الوقت بالكشف عنهم فرجائى ان ينبرى لهذا الموضوع شبابنا المثقف الصاعد الذى نشـأ وترعرع فى ظل الثورة والاسـتقلال . فيحيى التراث وامجاد الأوائل من اجدادنا الابرار .

والله الموفق

تمت بحمد الله

المراجع الأساسية

أولا ــ العــــربية :

١ ــ الدراسات التى نشرتها ((مجلة الجيش الجزائرية فى الفترة ما بين ١٩٦٧ و١٩٧٠)) .

٢ ــ ((محمد المقرانى وثورة ١٨٧١)) مخطوط للمؤلف .

٣ ــ تاريخ الصحافة فى الجزائر الجزء الأول ، للمؤلف ، طبــع الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ــ الجزائر ١٩٧١ .

٤ ــ التحقيقات التى نشرها الســيد / ابن الصيام فى جــريدة المبشر ابتداء من يونيو حزيران ١٨٥٢ .

٥ ــ سلسلة المقــالات التى كتبها السيد / محمد الســعيد على عام ١٨٥٣ .

الشريف فى جـــريدة المبشر ابتداء من يناير كانون الثــانى

٦ ــ الصحافة العــربية للسيد / أديب مروة . طبع دار الآداب بيروت ١٩٦٢ .

٧ ــ مجلة الآداب . التى تصدرها جامعة الجزائر . العدد الأول السنة ١٩٦٤ .

٨ ــ كتاب الحركة الوطنية الجزائرية للدكتور / أبو القاســـم ســعد الله .

ثانيا ـ الفرنسية :

9. Lés Musulmans Français du Nord de l'Afrique par : Ismael Hamet Alger 1906.

10. Lés Interprêtes de l'Armée d'Afrique par : Charles Feraud. Edition Press Universitative de France Paris Alger 1949.

11. Kitab Ayane El Maghariba par : E Gourion Alger 1920.

12. Histoire de l'Algérie contemporaine par : Charles André Julien. Press Universitative de France Paris 1962.

13. Révue du monde Musulman Serie 1906 — 1912.

محتويات الكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٨١/٣٥٠٣

الترقيم الدولى ٦ ـ ١٦٣ ـ ٢٩٧ ـ ٩٧٧ ISBN

مطابع دار الشعب بالقاهرة

هذا الكتاب

● فى هذه الدراسة النادرة يقدم لنا المؤلف دراسة شاملة لعدد من رواد الصحافة الجزائرية الذين عملوا فى الصحف الجزائرية مع بداية نشأتها .

● وتتميز هذه الدراسة بابراز دور كل رائد من خلال عمله وكتاباته مع القاء الضوء على ظروف نشأته وتكوينه بالاضافة الى ربط الفترة التى أرخ لها المؤلف بما كان يجرى فى باقى أجزاء الوطن العربى وخصوصا سوريا ومصر .

● ومن المؤكد أن تاريخ الصحافة فى كل قطر عربى يحتاج لمثل هذه الدراسة الموضوعية ، فالصحافة هى دائما مرآة عصرها والمؤشر الحقيقى للتطور الاجتماعى والاقتصادى والسياسى ، ومن هنا تكمن قيمة هذه الدراسة وأهميتها .

الثمن ١٠٠ قرش



١٤٠١ هـ - ١٩٨١ م